توأم البحر

عواد علي

وزارة الثقافة والسياحة والآثار
دار الشؤون الثقافية العامة
العنوان ـ بغداد ـ الأعظمية ـ حي تونس
البريد الالكتروني: info@darculture.com

توأم البحر
تأليف: عواد علي
موضوع الكتاب: رواية
بغداد ـ 2023

المدير العام ورئيس مجلس الإدارة: عارف الساعدي
قياس الكتاب: 14 × 21 cm
عدد الصفحات: 168
الرقم الدولي: ISBN
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد: ( ) لسنة 2023

حقـوق النشـر محفوظة، لايسمح بإعـادة إصـدار هذا الكتـاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطـاق اسـتعادة المعلومـات أو نقلـه بـأي شـكل مـن الأشـكال، مـن دون إذن خطـي مـن النـاشر.

All right reserved. No part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system، or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

عواد علي

توأم البحر

رواية

بغداد ـ 2023

«كلّ من وُلد رجلًا عليه أن يتآخى مع البحر منذ الصغر حتى يعرفه»

جنكيز آيتماتوف

«كان البحر نافذتي وصوتيَ والشّراعْ»

نوري الجراح

1

مع تباشير الخريف، التي لاحت مبكّرةً هذا العام، تشهّيت الخروج إلى بحر أرابخا الذي لا وجود له على الخارطة. لم أهنأ بلقياه منذ منتصف الربيع. هاج شغفي به، وتحرّقت شوقًا لعِناقه. قررت أن أقصده وأسلّم عليه، وأعِده بأن أظل ملتزمًا ميثاق المحبة بيني وبينه، أواظب على زيارته، أُصغي إلى رجيف أمواجه، أرتمي في حضنه واستنشق رائحته، وأفضي بأسراري إليه.

أخذني عنه أخذًا انشغالي بامتحانات السنة التحضيرية للماجستير، وإدارة محل أبي للساعات حين ألمَّ به مرض ألزمه الفراش. كنت أقضي وقتي موزَّع الذهن بين مراجعة دروسي وتلبية طلبات الزبائن، هذا يريد إصلاح ساعته المعطّلة، وذاك يريد أن يبيعني ساعة روليكس مقلّدةً زاعمًا أنها أصلية، وثالث يطلب ساعة جيب سويسريةً لجَدّه، ورابع يريد استبدال زجاج ساعته المتصدع، وخامس يسأل عن ساعة عليها صورة زعيم راحل، وفتيات يبحثن عن ساعات يدوية لا يتسرّب الماء إليها أثناء استحمامهنّ.

الحقّ أنني كنت ألتذّ بالحديث مع الجميلات منهنّ عن ذلك الأمر، أتخيّل أجسادهنّ تحت الدوش، وانحدار رغوة الصابون، الشبيهة بزبد البحر، من أعناقهنّ إلى صدورهنّ وأردافهنّ في خطوط متعرّجة.

أحيانًا كنت أُبتلى بزبائن مزعجين لا يُطاقون. ذات مرة جاءتني امرأتان، واحدة بيضاء قدّرت عمرها بين الخامسة والثلاثين والأربعين، ذات بنية بدينة، وشفتين منتفختين، ووجنتين ملطختين بحمرة فاقعة، ونظرات مخاتلة، والثانية ذات بشرة سمراء غامقة نحيلة للغاية كأن في بطنها ديدان، هزيلة الوجه، شفتاها بلون التوت الداكن، تعلّق على كتفها حقيبةً مرقّطةً تشبه جلد نمر. كانت سحنتاهما تنبئان بأنهما عاهرتان مبتذلتان، فوجدت لزامًا عليّ أن أكون يقظًا وأراقبهما جيدًا، فالنساء على شاكلتهما عديمات الحياء، ولا يتورّعن عن السرقة.

اقتربت مني السمراء، وأحنت رأسها تجاهي كأنها تريد أن تسرّني بشيء، فأفغمت رائحة عطرها الرخيص أنفي، وسألتني بنبرة غنجة:

ـ هل أجد عندك سيجارة حبّوب؟

تراجعتُ إلى الوراء:

ـ آسف لا أدخن.

تصنّعت الامتعاض وتوجهت صوب رف زجاجي مخصص للساعات الرجالية خلف ظهر صاحبتها البدينة. وبعد هنيهة سحبت ساعةً ولوّحت بها:

ـ حبّوب، بكم تبيع هذه الساعة؟

ـ هذه رجالية.

مرّرت راحة كفها على شفتيها وقالت:

ـ أعرف، أريد أن أشتريها لزوجي.

ـ تسعون ألف.

شهقت:

ـ هل أنت جاد؟

ـ ولِمَ أمزح؟

ـ أويْ! أنت «مغلواني» جدًا.

ـ هذا سعرها.

أما البدينة فقد ارتدت ساعةً نسائيةً في معصمها، ومدّت ذراعها إلى وجهي حتى لامست أناملها ذقني، ثم مالت بجذعها إلى الأمام، وفتحت بيدها الأخرى الزر العلوي لقميصها، فبان ثدياها مترهّلين، وسألتني بصوت متحذلق ممطوط إن كانت الساعة تنسجم مع قلادتها وخاتمها، في حين حجب جسدها عني رفيقتها النحيلة. أدركت على الفور أنها تحاول إلهائي ليتسنى للثانية أن تسرق، فأزحتُ ذراعها بسرعة وأفشلت خطّتها. أثارت حركتي حنقها، فرسمت على وجهها تعبيرًا قاسيًا، واضطرمت في عينيها نار صفراء، واتنزعتْ الساعة من معصمها ووضعتها في يدي بشدة، ورفعت عقيرتها زاعقةً:

ـ خذها، خرا عليك وعلى ساعتك، أنت خسّيس لا تحترم زبائنك.

ثم أمسكت صاحبتها من ساعدها وجرّتها بانزعاج، وثغثغت بكلام بالكاد فهمت منه:

ـ أنتِ السبب، ما كان عليكِ أن تختاري هذا المحل الزبالة لنشتري منه؟

شيّعتهما بهزة من رأسي، من دون أن أنطق بكلمة تجنبًا لحدوث مشادة قد تدفعهما إلى افتعال فضيحة، وما إن بلغتا الباب حتى استدارت البدينة ناحيتي ومدّت لسانها بطريقة شائنة. كتمت غيضي، وأشفقت عليها «بائسة، بارت حرفتها فتحولت إلى نشّالة».

وحدث أن أتى مرةً رجل خمسيني ذو لحية، وجهه غامض محاط بالكتمان، يضع على عينيه نظّارات شمسيةً معتمةً، ويعتمر عمامةً، وفي يده مسبحة طويلة، ما يوحي للرائي أنه رجل دين، وخلفه امرأة تغطي وجهها بنقاب. لكنّ ما أثار ريبتي حذاؤه ذو المقدمة المدببة، الشاذ تمامًا عن هندامه وعمامته.

أخرج من جيبه هاتفًا خلويًّا حديثًا من نوع آيفون، وسألني بصوت فيه خنّة إن كنتُ أرغب في مقايضته بساعة روتري حتى لو كان سعرها نصف سعر الهاتف. لحظتئذ ثبُتَت ريبتي فيه، وأيقنت أنه لص، فاعتذرت منه، بيد أنه امتعض وتلفظ ببعض كلمات وقحة، لمّح فيها إلى الصليب في رقبتي، خرجت من منخريه مع دفقة هواء، ثم انصرف.

وفي مرة ثالثة دخل إلى المحل شاب نحيل أملط، يلبس بنطالًا ضيقًا ذا خصر واطئ، يظِهر شيئًا من سرواله الداخلي، وطوقًا في عنقه وسوارًا في معصمه. نظر إلى أرفف الساعات، وسألني بجرس أنثوي:

ـ واو! هل ما زال الناس يشترون الساعات في زمن الموبايل؟

قلت:

ـ إذا كان موديلها قد انتهى فلماذ لا نغير المحل إلى مطعم فلافل؟

ـ أنت سريع الزعل، حسبتك شابًا سبورتي!

ـ طيب، لست زعلان، بماذا أخدمك؟

ـ كنت أود أن... لكن لا داعيَ، أنت لست من النوع الذي في بالي، باي.

صحت به:

ـ تعال، ماذا في بالك؟

رفع يده:

ـ إنسَ، أنت لا تميل إلى...

ـ إلى ماذا؟

ـ باي.

أخفيت عن أبي ما جرى لي مع العاهرتين والشاب المخنّث، وأطلعته على قصة الرجل ذي العمامة، فضحك وقال «أعرفه، كان موظفًا سابقًا في الأوقاف وطُرد بسبب سرقاته العديدة».

2

في الشتاء الفائت أطفأت خمسًا وعشرين شمعةً من عمري، لكني أشعر أحيانًا بأني أصغر من ذلك بكثير، كأني ولدت قبل سبعة عشر عامًا، يوم دخلتُ أول مرة بحر أرابخا المنسي.

أصطحبني أبي في رحلة ترفيهيّة على متن مركب سياحي، رفقة جمع من أقاربنا ومعارفه، رجال ونساء وأطفال، في عيد الغطّاس، ذكرى معمودية يسوع على يد يوحنّا المعمدان. لم أكن أعرف أحدًا من الأطفال سوى اثنين، أحدهما جون ابن خالتي والثاني ميخائيل ابن جارنا في السكن. كان الجو قارسًا ينثّ الثلج ببطء على شكل خيوط دقيقة، إلاّ أن الجميع احتاط من البرد بمعاطف أو قماصل مبطنة بالفرو.

أذكر أن أبي قال لي «في هذا اليوم انفتحت السموات، وانطلق صوت ينادي هذا هو ابني الحبيب فله اسمعوا». كان أبي آنذاك على شيء من التديّن، لكنه تغيّر بعد سنوات. وبينما كان المركب يقترب من المرفأ، أثناء عودتنا، ألقى رجل، يرتدي رداءً كهنوتيًّا، صليبًا في الماء، وطبطب على ظهر أحد الشبّان كأنما يقول له «هيّا عجّل». نضى الشاب معطفه وألقى به إلى سيدة واقفة على يمينه، وكان يرتدي تحته لباس البحر، ثم رسم علامة المصلوب وقفز إلى الماء.

لم أفهم مغزى ذلك، حسبته لعبةً، ولبثت فاغر الفم، مرتعبًا، خشية أن يغرق الشاب، لكن أبي طمأنني:

ـ لا تخف، إنه طقس أرثوذكسي، الشاب عوّام ماهر ومدرَّب على الغطس، سيلتقط الصليب من دون إبطاء كما يلتقط الخبّاز الشعرة من العجين.

ـ ألا تفترسه أسماك القرش؟

ـ أسماك القرش لا تقترب من الشاطئ إلاّ إذا جرى استفزازها، أو شمّت رائحة الدم.

تلاشى خوفي قليلًا، وبقيت متمسّكًا بمعصم أبي، لا تفارق عيناي الماء، وما إن انقضت دقائق حتى أخرج الشاب رأسه ملوّحًا بالصليب، وصار يسبح صوب الشاطئ.

أدهشني في حينها امتداد البحر على مدى البصر، حسبته من دون نهاية مثل السماء، وله روح مثل الكائنات الحية، ينام، ويأكل، ويضحك، ويمرض، ويجلس القرفصاء، ويغريني بأن أعقد معه صداقةً أزليةً. بعدئذ صرت مسكونًا به، لا أستطيع منه فكاكًا، يلازمني، يتراءى لي في أحلامي بين الفينة والفينة، وفي بعض الأحلام كان يتحول إلى سرير مائل أستلقي عليه، دون أن ينزاح جسدي عنه، وكأنه صفيحة مغناطيسية وأنا قطعة حديد.

في المدرسة أصبح البحر موضوعي الأثير خلال حصة الرسم، ما إن يقترح المعلم على التلاميذ رسم منظر طبيعي حتى أستحضر لا إراديًّا منظرًا للبحر مفتوح الأفق، وأهب السماء لونه الرصاصي الفاتح. وفي كل مرة كنت أجعل فوق أمواجه سفينةً أو مركبًا شراعيًّا، أو أستنبت على سطحه

زوارق صغيرةً ذات ألوان مختلفة تشبه الزنابق. ليس هذا فحسب، بل كلّما كان يسألنا مرشد الصّف عن المكان الذي نفضّله في رحلتنا المدرسية كنت أقترح، وأحيانًا ألحّ، على أن يكون شاطئ البحر، وبسبب ذلك خمّن أنني سأنتهي إلى أن أكون بحّارًا. أما زملائي فقد كانوا يسمعونني تعليقات غريبةً، فريق يقول إنني سأصبح عالِم بحار ومحيطات، وفريق آخر يقول إنني سأصبح ضابطًا بحريًّا. ميخائيل الملعون فقط شذّ عنهم، ظل مدةً يردد بخبث أنني سأكون صيّاد سمك. زعلت منه بالطبع وقاطعته وصرت أرفض أن يرافقني إلى المدرسة، أو يسير معي أثناء إيابنا، ولم أغفر له إلاّ بعد أن أتى إلى شقتنا صحبة أبيه واعتذر مني. بعدئذ راح يتملّقني، ويتمنى لي أن أكون مهندسًا بحريًّا. سألته:

ـ هل تعرف ماذا يعمل المهندس البحري؟

لم يحِر جوابًا.

ـ لِمَ تتمنى لي أن أكونه إذًا؟

ـ أبي لقّنني.

كان أبوه جورج ميكانيكي سيّارات ماهرًا، وكلدانيًّا محترمًا، كريم النفس، يقدّمه أبي على جميع أصدقائه، ولم يكن يحلو له السهر إلاّ معه، تارةً عنده وتارةً عندنا، وفي أحيان متباعدة كانا يترافقان إلى بيت صديق ثالث في نفس الحي الذي نقيم فيه، رغم اعتراضات أمي، يذهبان ويعودان سيرًا على أقدامهما، وكثيرًا ما كان العم جورج يصلّح عطلات سيارتنا من غير مقابل، قبل أن يترك أبي السياقة إثر حادث اصطدام ارتكبه في ليلة شتائية مثلجة، ونجونا منه بأعجوبة. لكن تلك قصة سأحكيها في ما بعد.

حين بلغت سنّ الشباب أخذت أمضي إلى البحر من دون انقطاع. أشعر بأنه يدعوني يوميًا إلى حدّ خلت أنني أنحدر من سلف كان طوطمهم أحد مخلوقاته، وأن الفردوس التي يغرينا بها الله عائمة على سطح البحر. لم يفلح هجير الصيفّ، ولا الصقيع، ولا الهواء لاذع البرودة في منعي من الذهاب إليه، أو إخماد جذوة عشقي له، أو ردع سطوته عليّ.

كان الشاطئ وقتها يبعد ثلاثة كيلومترات عن الحي الذي نسكن فيه، أقصده راجلًا أو بسيارة أجرة، أما اليوم فهو على بعد سبعة كيلومترات عن الحي الذي انتقلنا إليه.

قي تلك السن، صرت أتمنى أن أغوص إلى أعماق البحر لرؤية أشكال الحياة فيها، وسبر أغوارها، واستجلاء مكامن أسرارها العظيمة الشأن، وأحظى بمشاهدة العروض المذهلة للأسماك ذات الألوان الزاهية، التي اعتاد الغواصون على تسميتها «الراقصات الإسبانيات» لأن عروضها تذكّرهم برقصة الفلامنكو الشهيرة، رغم أنها تؤديها وقت الهروب من الكائنات البحرية المفترسة.

دفعني ولعي بالبحر إلى مشاهدة كل ما يقع في يدي من أفلام تجري أحداثها على شواطئه أو على سطحه أو في باطنه، وقراءة الكتب التي تتحدث عن عالمه. كنت أشتري بعضها، وأستعير بعضها الآخر من المكتبة العامة، حتى أن أمينتها، السيدة شرمين، كانت تجهّز لي مجموعة روايات، حسب ذائقتها، معتقدةً أنها تلبي رغبتي، قبل أن يحل موعد ذهابي إليها مرةً أو مرتين في الشهر. أحيانًا كانت تمتدح قسمًا منها على نحوٍ مفرط، خاصةً تلك التي قرأتَها أو قرأتْ مقالات عنها في مجلة أو صحيفة. والحق أنها كانت تصدق مراتٍ وتبالغ مراتٍ أخرى. أصابت في مدح بعضها،

وأخفقت في إطرائها على روايات لم يحظَ البحر فيها بالصورة الإبداعية التي يستحق.

من أجمل ما قرأت تخيّلات الأدباء أن للبحر ألوانًا عديدةً مثل ألوان أسماكه ونباتاته، رماديًّا عند انبلاج الفجر، أبيض في الصباح مثل النوارس، أزرق في الظهيرة مثل السماء، لازورديًا في العصر، أصفر أثناء الغسق مثل لون الياقوت، وأسود في الليل مثل قطرات الجحيم، وثمة ضوء أخضر يظهر، ثوانيَ قلائل فقط، عند التقاء أشعة الشمس بسطحه أثناء الشروق والغروب. لكن من أعجب ما قرأت أنه يكون بلون الكريولين الحليبي المخضوضر في الصباح، وفي المساء مثل ثمرة أفوكادو مقسومة تتوسطها البذرة الكبيرة الحمراء.

قلت فلأُجرّب، ذهبت إلى الشاطئ في كل هذه الأوقات، ومكثت كل مرة نصف ساعة أو أكثر، لكنّ شيئًا من ذلك لم يظهر، فأقنعت نفسي «لا بأس، لعل المكان غير مناسب، أو ربما يحدث الأمر في بعض البحار وليس في كلّها». إلاّ أن أغرب منظر رأيته كان قبيل فجر يوم صيفي، عندما بدأ القمر يلفظ آخر ذرات النور على الماء. قلت في دخيلتي إنه أفضل وقت للسمر على الشاطئ لو أن الظروف الأمنية تسمح بذلك.

بعد سنوات، إثر تخرجي في الجامعة، حققت أمنيتي في النزول إلى باطن البحر. سافرت إلى عمّان سائحًا، رفقة صديق لي، ومنها إلى خليج العقبة. حجزنا غرفةً في قارب غوّاصة، ذات واجهات زجاجية مكّنتنا من مشاهدة أشكال الحياة البحرية تحت الماء. كانت رحلةً رائعةً في جوف تلك الغواصة التي يسمونها «نيبتون»، قضينا خلالها ساعةً ونصف الساعة في أجمل مواقع الشعاب المرجانية. لكننا لم ننعم للأسف بمشاهدة

«الراقصات الإسبانيات»، بل رأينا سلاحف كبيرةً بحجم البشر ذات زعانف مرقطة كستنائية اللون تشبه جلد الزرافة.

كنت أرغب في دراسة علم البحار، بيد أن عدم وجود هذا التخصص في جامعة أرابخا حال دون تحقيق رغبتي، كما أني لم أفلح في نيل بعثة أو منحة دراسية خارج البلد. يا حسرتي، من أين لي الواسطة؟ في حين أنني أعرف طالبًا من مدينتي، أنهى الثانوية معي، انتزع له أبوه، النافذ سياسيًا، بعثةً إلى «نانت» بفرنسا لدراسة هذا العلم، رغم أنّ درجاته في البكالوريا كانت أقل من درجاتي. وقد كتب لي مرةً، كمن يغيضني، أنه مستمتع بمقررات الدراسة وموادها التي تشتمل على علم الأحياء البحرية، والأنظمة البيئية، والأمواج والتيارات البحرية، وتكتونيات الصفائح، وجيولوجيا قيعان البحار، وغير ذلك الكثير الكثير، وأكد أنه سيحصل على دروس عملية في المحيط الأطلسي الذي يبعد عن المدينة خمسين كيلومترًا. وحين نال تلك الدروس أرسل لي صورًا له صحبة طالبات فرنسيات وجزائريات وأخريات من جنسيات مختلفة، ولم ينس بالطبع إغاضتي أكثر بأن أرفقها ببضع صور التقطها على الساحل يحتضن فيها فتاةً شقراء ترتدي البكيني، قائلًا إنها حبيبته، ومن أُسرة باريسية عريقة، وسيقترن بها بعد التخرّج، ويعيش معها في فرنسا. وختم كلامه بعبارة استفزازية «لا جدوى من العودة إلى العراق البائس».

رغم تعلّقي بالبحر أوثر أكل أسماك النهر على أسماكه. وليس في هذا ما يثير استغرابًا، هكذا ألفيت نفسي منذ طفولتي، فجَدّي لم يكن يلتذّ بالسمك المشوي إلاّ إذا كان من تلك الأنواع التي تصطادها شِباك الصيادين في الأنهر، مثل «القطّان» و«البني» و«السمتي» و«الشبوط»، شريطة أن يرافقه

على المائدة خبز تنور ساخن وطرشي (مخلل) وعَنبّة وصحن خضار، ويعقبه شاي مهيّل. وجريًا على عادة معارفنا المسلمين، كان يوم الأربعاء هو اليوم المفضّل لتناوله، لأنه يجلب الرزق حسب الاعتقاد الشائع. أما سمك «الزبيدي» البحري فكان جدي يأكله متبّلًا مقليًّا بالزيت مع الرز، وهو ما يُعرف بـ«المطبّق». لذا ما فتئت أسرتي كلها تتّبع هذا التقليد، ولا تحيد عنه.

قبل مدة دعانا ابن عم لي قادم من لندن، ممتلئ الجيب، إلى مطعم متخصص بالسمك المسقوف والدجاج بالتنور، ولا أدري كيف أقنع أبي بأن يجرّب سمك القاروص (السيباس) البحري، المستورد لا أدري من أين. وما إن التهم أول لقمة حتى أزاح الطبق من أمامه وقال ممتعضًا «هذا خراء وليس سمكًا»، ونادى على صاحب المطعم، وطلب منه أن يشوي له سمكةً نهريةً. أما أنا وأمي فقد أكلنا القاروص على مضض مجاملةً لابن عمي. وحين خرجنا سألته «أين تعيش هذه السمكة؟» قال «في البحر المتوسط والبحر الأسود والشواطئ الأوروبية من المحيط الأطلسي»، وأضاف مستغربًا «لِم لم يحبّها عمي، مع أنها تحمي من السرطان وتحافظ على صحة القلب والشرايين».

3

اتصلت بصديقي عمران، وعرضت عليه أن يرافقني إلى البحر، لكنه اعتذر، للدقة تعلّل بأن لديه موعدًا مع الأستاذ المشرف على أطروحته.

كان مزاجه متعكّرًا بسبب كثرة الأخطاء الطباعية التي وقعت فيها زوجته حديثة العهد في استخدام الكومبيوتر، وترتّبَ عليه أن يبذل جهدًا كبيرًا في تصحيحها.

يكبرني عمران بأربع سنوات، ويسبقني في قسم الآثار بالكلية. شاب مديد القامة، وُهب نذرًا من الوسامة، قلبه من ذهب، دافئ المشاعر، يأسرني بنزاهته وصدقه، ألمعي الذهن، متكلم مفوّه لا يُشق له غبار، يقرأ بسرعة ما يدور في رأسي من أفكار. وعليّ أن أعترف بأنه أكثر عقلانيةً مني، لا ينقاد وراء عاطفته وهواه، ولا يضعف أمام الإغراءات، يختار أصدقاءه بدقة، له نظرة ثاقبة، ويعاين الأمور من مختلف الوجوه، ويتصرّف بوحي من تفكيره، حتى أنه رفض أكثر من مرة عرض زوجته عليه بأن ينفصلا، بسبب عقمها، ويتزوج امرأةً أخرى، فهو يحبها جدًا، ولا يريد أن يضحي بها من أجل ذرية قد لا تكون صالحةً، وقد تنتهي إلى الضياع في بلد ضائع، كما يقول. عدا عن ذلك، لا أحد من أقرانه طلبة الدكتوراه في قسم الآثار لديه معرفة معمّقة في تاريخنا القديم، ينغمس في درره ونفاياته؛ متقصّيًا الصغيرة والكبيرة فيها، لذلك أعدّه مرجعًا موثوقًا حول أي موضوع غامض.

مسألة واحدة تحيّرني في عمران هي إدمانه على الثِرب (بيض السمك). ما رأيت في حياتي قط شخصًا يحب أكله بهذا القدر. ينكبّ على تناوله كما لو كان فطرًا مقليًّا مع بيض الدجاج أو جوزًا مخلوطًا بالعسل؛ اعتقادًا منه بقدرته على زيادة فحولة الرجل، وتحسين أدائه الجنسي، ومكافحة علامات الشيخوخة. رسّخ هذا الاعتقاد في رأسه أخوه السمّاك الذي يجلب له كميّةً من الثِرب بين حين وآخر.

بسبب ذلك بدا لي أن صيد الأسماك الحوامل أمر بغيض، ولو تُركت في الماء حتى تضع بيوضها لجنى الصيادون المزيد من هذه الثروة. لكن أنّى لشباكهم العمياء أن تميّز الحوامل عن غير الحوامل؟ الأحرى أن يصدر قرار يمنع الصيد في فترة تكاثر الأسماك.

حاولت إقناع عمران ذات مرة بأن يقلع عن هذه العادة لأن بعض أنواع الثِرب يحتوي على نسبة عالية من الكولسترول، ويسبب له متاعب صحيةً، إلا أنه ردّ عليّ بأريحية «لا تشغل بالك، اعتدت على تناوله، لكن ليس بشراهة بل باعتدال، إنه كافيار الفقراء، وأخي خبير يعرف كل أنواعه. ستتذكر حاجتك إليه بعد سنين من زواجك، وستهرع إليّ طالبًا أن أسعفك بشيء منه».

حياة عمران بسيطة، وهو مقتنع بها، لا يشخص ببصره خارج ما تمنحه له عن استحقاق، وحين يسأله أحدهم «كيف هي أمور دنياك؟» يجيبه «كلّ شيء تمام لولا تشاؤمي من الوضع العام الذي يعكّر صفوها».

كان وما برح رفيقي الدائم في الاستئناس بالبحر. كلانا نعدّه الوجهة المفضّلة للترويح عن النفس، ولطالما اتخذنا شاطئه مكانًا للاسترخاء

والتغلّب على منغّصات الحياة اليومية. أحبَّ ركوب أمواجه مذ كان مراهقًا صحبة أخيه الكبير صياد السمك، الذي تخلى مؤخرًا عن مهنته وفتح محلًّا لبيع ثمار البحر. وقبل ذلك، كان في طفولته يرافق أباه أحيانًا بقارب خشبي للصيد في نهر الفرات، الذي يطوّق بلدة «راوة»، مسقط رأسه، من ثلاث جهات.

قال لي، عندما تعرّفت إليه:

ـ أنا سليل أسرة تحب الماء مثل الصابئة المندائيين، سواء أكان نهرًا أم بحراً. تآخيت معه منذ الصغر، ولدت وترعرعت في شبه جزيرة محصورة بين الجبل ونهر الفرات، كانت في ما مضى معبرًا إلى بلاد الشام. وكان بيتنا مواجهًا لخرائب قلعة في الجبل أزيلت وأنا رضيع.

علّقتُ:

ـ مثل قلعتنا التي لم يبق منها سوى أطلال.

أكملَ:

ـ لم تكن قديمةً جدًا، بُنيت إبان حكم الوالي العثماني مدحت باشا لحماية حركة النقل المائي.

كثيرًا ما اصطحبت عمران إلى كنيستنا في مناسبات عديدة. كان يستمتع بالشعائر والطقوس التي تُقام فيها، والإصغاء إلى أنغام موسيقاها وتراتيلها، ويبدي سعادته بالاطلاع على تقاليدنا الاجتماعية، وينخرط أحيانًا، بعد انتهاء المناسبة، في حوار مع راعي الكنيسة حول قضايا معقدة في عالم الكهنوت والليوتورجيا. ومهما بدا الأمر بعيدًا عن التصديق فقد

كان يحاور بروية وعقل مفتوح جعلني أعيد النظر ببعض المسلمات التي أؤمن بها. في لقائه الأول بالكاهن سأله هذا «أنت مسلم، ألا تشعر بالحرج من حضورك إلى الكنيسة؟»، أجابه عمران بأنه منفتح، ووجدانه لا يحول دون ذلك.

وفي عيد الميلاد ورأس السنة يحتفل عمران معنا في البيت، يأتي رفقة زوجته حاملًا زجاجتي نبيذ وويسكي، أو نبيذ وعرق حسب رغبته، وينغمس مع أنغام الموسيقى ويرقص ببساطة متناهية، مع أنه لا يحسن الرقص، أو لأقل لا يجيده بإتقان مثلي، وحين يغادر، بعد انتهاء الحفل، يمشي بطريقة تشي بأنه ما زال تحت تأثير إيقاع الرقص.

يتميز عمران، فضلًا عن ذلك، بسمة ما عهدتها عند أصدقائي الآخرين، إنه يلبي أي رغبة تعنّ لي عن طيب خاطر، وبشعور عظيم بالمودة، حتى لو كانت سخيفةً أو تتعارض مع مزاجه، إلاّ إذا كان لديه سبب قاهر يحول دون تلبيتها. وبالمقابل ما تخلّفت يومًا ما عن فعل أي شيء من أجله. ولا أنسى ما حييت رحلتي الرائعة معه إلى بحيرة «دوكان» في الصيف قبل الماضي. ذهبنا بسيارتي إلى السليمانية أولاً ثم إلى البحيرة، ومنها إلى قلعة «سارتكه» على الضفة المواجهة للنهر المتدفق من سد دوكان. سحرتني مياه البحيرة وأسماكها، ومزارع العنب والجوز والتوت، وشجرات الصنوبر واليوكاليبتوس في محيطها. وفي الطريق الموصل إليها استوقفني، مثلما استوقف غيري من السياح والمصطافين، منظر جبل «سارة» الشاهق، الذي يشبه جسد امرأة نائمة تتطلع إلى السماء.

في هذه المرة كان لدى عمران، لا ريب، عذر وجيه، فقد سلخ ما

يزيد عن سنتين قاسيتين في كتابة أطروحته «الأختام الأسطوانية والفكر الاجتماعي في العصر الأكدي»، وهي أطروحة مهمة، حسب الأستاذ المشرف عليها، توصّل فيها إلى أن تلك الأختام كانت فنًّا شعبيًّا، تعايشت مضامينها مع وسيط بيئي خاص.

من ناحية أخرى لم يتبقّ أمام عمران سوى مدة قصيرة لمناقشة تلك الأطروحة ونيل الدكتوراه، التي يعلّق كل آماله عليها كي تفتح له باب الانتقال من التدريس في المدرسة الثانوية إلى إحدى الجامعات. لذا ما كان من اللائق، بداهةً، أن ألحّ عليه لمرافقتي إلى البحر.

كانت حياة عمران سلسلةً من المصاعب منذ دخوله الجامعة، أقساها تعرضه لمضايقات الميليشيات، وقد نجا بأعجوبة مرةً، أيام الاقتتال الطائفي قبل تسع سنين، حينما أمطر كمين الباص التي كانت تقلّه مع جماعة من الركّاب، وهو قادم من بغداد، برشقة رصاص، فحطّمت زجاجها، وأصابت إحداها ذراعه الأيمن، في حين أودت رصاصات أخرى بحياة سيدة ورجل مسن وجرحت آخرين.

حدث ذلك، كما روى لي، ذات صيف حار في وضح النهار، عند غيضة شجرات في منعطف مباغت، ولولا شهامة السائق، الذي قاد الباص بأقصى سرعة إلى مستشفى في بلدة على الطريق، لنزف الجرحى حتى الموت.

أضحى عمران، بعد تلك الحادثة، أكثر تشاؤمًا، لا يني يردد أن البلد ضاع، الجميع تعاضدوا للانتقام منه ونهبه وتحطيمه، أعداؤه في الخارج، والحمقى، والعملاء، والمتناهون في الصغر، وشذّاذ الآفاق في الداخل.

وأذكر أني قلت له، حين سمعته أول مرة يتحدث بحرقة عن ذلك، «ليس هذا أمرًا جديدًا على البلد ولا بدّ أن يتعافى»، بيد أنه ردّ جازمًا «المرحلة الآن، يا نينوس، أخطر من أي مرحلة تاريخية مرّ بها سابقًا».

مع مرور الوقت، وتعاظم الكوارث التي صارت تحل بالبلد وجدت عمران محقًّا في تشاؤمه.

4

كان الوقت بُعيد ظهر خميسٍ رائقٍ بساعتين حين عزمت على الذهاب إلى البحر، وكانت أشعة الشمس تمزّق السحب، على قلّتها، في سماء المدينة، كما تراءت لي من خلال نافذة غرفتي في الطابق العلوي، والرطوبة أرحم بكثير من الأيام المنصرمة.

حلقت ذقني ورششت ماء الكولونيا على وجهي وعنقي، كما كنت أفعل كل مرة حين أتوجه إلى البحر، واحتسيت علبة بيرة مع سندويتشة خفيفة، وارتديت مايوه سباحة تحت بنطالي، على أنغام أغنية ذات إيقاع جميل يوقظ المشاعر من غفوتها، يبلغني صوتها من بعيد، متسللًا من تلفزيون جارتنا أسين، عبر شرفة بيتها المقابلة لبيتنا، حاملًا معه رائحة زهور الخزامى المنبعثة من الأصيص الفخاري الكبير فيها.

كان باب الشرفة الزجاجي مفتوحًا وستارته المخرّمة نصف مزاحة، وأسين تمسك بطرفها، من غير حراك، مرهِفةً بصرها إلى السماء كأنها تلمّ شتات نفسها، وتتطلع إلى حياة جديدة مع طفلتها الوحيدة نورجان ذات الأعوام الأربعة.

لم يسبق لي رؤيتها أبدًا تطل من الشرفة، وفوجئت بارتدائها ثوبًا فيروزيًّا مشجّرًا، يضفي عليه شعاع الشمس رونقًا، بعد حداد دام سنتين

على زوجها ياووز الذي لقي حتفه في تفجير سيارة مفخّخة استهدفت مقر الجبهة التركمانية التي ينتمي إليها.

كانت أسين أرصن أرملة عرفتها في حياتي، بل مثالًا للأرامل، قديسةً لا تتكلم بسوء عن أيٍّ كان، صبورًا على أشد الأمور مشقّةً، تشغل معظم وقت فراغها في البيت بالقراءة أو بالرسم أو تصحيح أوراق الامتحانات، ولا تحفل بالعمل السياسي، بالأحرى ليست السياسة من اهتماماتها، على النقيض من ياووز الذي كان غاطسًا فيها، راهنًا مصيره بالتنظيم الحزبي، مغرورًا بنفسه، ضاربًا رقمًا قياسيًّا في تكبّره، يتطيّر من أي التزام اجتماعي، فاتر الصلة بالجيران، وإذا ما سلّم على واحد منهم فمن وراء أنفه، يقطع الزقاق مثل طاووس منفوش الريش، مرتديًا بدلةً رسميةً مع ربطة عنق زرقاء منقطة بنجوم بيضاء شبيهة بعَلم الجبهة، رغم أنّ إحدى يديه كانت إلى الأمام والأخرى إلى الوراء. لذلك كانت أسين ممتعضةً منه على الدوام، ليس في تعايشها معه مسرّة ما، وقد سمعتها مرةً تتحدث عنه إلى أختي سلفانا:

ـ إنه لا يفهمني، ولا يقدّر قطّ موهبتي، تصوري يسمّي تخطيطاتي خربشات ليس فيها أي نفع وكأنها جريمة تستحق العقاب.

ردّت عليها:

ـ ربما أفقده العمل الحزبي الإحساس بالجمال، وجفّفت الأيديولوجيا روحه. أنا لن أتزوج إلّا شخصًا يحب الشعر مثلي.

ـ تفكيرك صائب.

ـ أتقرأين الشعر أم تفضلين الروايات فقط؟

ـ أحيانًا أقرأ، أحب شعر السياب ومحمود درويش ويوسف الصائغ.

ـ الصائغ! الله عليكِ. أبكتني مجموعته «سيدة التفاحات الأربع». استغرقتُ في شجنه الموجع، لوعة فقده لزوجته جولي، رثائه العميق لذاته واحتفائه بالخوف والهشاشة. هل تصدقين أنني قرأتها أربع مراتٍ بعدد تفاحاته، واطّلعت على معظم ما كتبه النقاد عنها؟

أردت أن أشاركهما في النقاش فقلت:

ـ أنا أحب مجموعته «انتظريني عند تخوم البحر».

قالت سلفانا:

ـ تحبها لأنك ممسوس بالبحر.

ثم عادت تسأل أسين:

ـ أتقرأين الشعر التركماني؟

ـ قرأت لبعض الشعراء.

ـ هل سمعتِ بسركون بولص؟

ـ سمعت به، وقرأت له قصائد قليلةً.

ـ إنه شاعري المفضّل، قصائده تعبّر عن قلق النفس وتمزقاتها والبحث عن الخلاص بصور مدهشة. إذا أحببتِ أعيرك إحدى مجموعاته.

ـ نعم أريدها، سأسهر معها الليلة بعد أن ينام حامل الأيديولوجيا.

قهقهت سلفانا على وصفها البارع لزوجها بحامل الأيديولوجيا، ثم نهضت واتجهت إلى غرفتها لجلب مجموعة سركون بولص. شاركتُها في ردة فعلها، وقلت لأسين «أنت لستِ مرهفةً في الرسم فقط».

أنهت أسين دراسة الرسم في معهد الفنون قبل زواجها ببضع سنوات، وهي تمتلك مهارةً في التخطيط على الورق بقلم الرصاص أو الفحم، وتفضّله على الرسم بالزيت أو بالألوان المائية، وغالبًا ما تميل إلى التظليل، اعتقادًا منها بأنه يضفي الضوء والعمق على اللوحة.

تُعلّم أسين الرسم في مدرسة ابتدائية للبنات لا تبعد كثيرًا عن حيّنا، وهي ناجحة في عملها، تقبل عليه بكلّ همّة، لكن إدارة المدرسة تحمّلها فوق طاقتها، توكل إليها تعليم التلميذات مواد أخرى لإكمال نصابها المقرّر. تترك طفلتها عند جَدّتها، التي تسكن في بيت قريب على طريق المدرسة، وتأتي بها بعد انتهاء دوامها.

كانت تزورنا بين وقت وآخر أيام كان زوجها حيًّا، وتملأ بيتنا مرحًا وضحكات يتردد صداها في جنباته بسخرياتها ونكاتها ودعاباتها اللطيفة، صحبة سلفانا قبل أن تتزوج وتغادرنا إلى أربيل مع زوجها الذي يعمل أستاذًا للأدب في الجامعة. وفي بعض المناسبات والأعياد كانتا تتعاونان في إعداد الحلوى، أو تلوين بيض الفصح المسلوق وزخرفته.

بعد ترمّل أسين زارتنا مرات قلائل، لم تكن تمكث سوى نصف ساعة أو أكثر، تستعير خلالها بعض الروايات من مكتبتي وتقفل راجعةً إلى بيتها، ثم توقفت نهائيًّا عن زيارتنا خشية أن تتقوّل نسوة الجوار، المتمرسات في النميمة واختلاق الإشاعات، بما يقدح في أخلاقها ويخدش سمعتها.

أعطتها أمي الحقَّ في احتراسها، قائلةً إن ترددها علينا الآن يشكّل أدسم طعامٍ لمدّعيات العفّة، وصارت تزورها أحيانًا لتتفقّد أحوالها، وفي آخر زيارة لها أسرّتها أسين بأن أهلها أخذوا يحثّونها على إنهاء حدادها،

وأرسلت لي معها روايةً، وفي داخلها ورقة مكتوبة بخط يدها تقول «هذه رواية أم الخيال. إقرأها فورًا، إنها قطعة من العذوبة والجمال الحزين يختلط فيها الحلم بالواقع. أنا التهمتُها في جلسة واحدة، وأخمّن أنك ستفعل مثلي. وإذا كانت لديك رواية أخرى للكاتب نفسه أعرنيها، شريطة أن تكون قصيرةً، لأنني لم أعد أستطيع هضم الروايات البدينة». أضحكتني عبارتها الظريفة أول الأمر، ثم رأيت أنها محقّة، فالقارئ في زمننا ما عاد يتحمّل الإطناب.

5

انتعلت صندلي، وحملت منظاري، الذي اعتدت رؤية الزوارق وقوارب الصيد على سطح البحر من خلاله، وهبطتّ الدرج. سألتني أمي:

ـ إلى أين؟

قلت:

ـ إلى الشاطئ، البحر بانتظاري.

ـ وحدك أم مع عمران؟

ـ وحدي هذه المرة، عمران مشغول.

ـ أرأيت؟ إنه أعقل منك، لِمَ لا تنشغل أنت أيضًا بدراستك؟

ـ انتهيت من الامتحانات وأريد أن أروّح عن نفسي.

ـ ألا تجد مكانًا آخر غير البحر؟ لا أدري متى يخرج وسواسه من رأسك.

ـ إنه عشق وليس وسواسًا.

ـ كيف ليس وسواسًا وأنت تملأ جدران غرفتك بهذه الرسوم؟

ـ أليست جميلةً؟ إنها مستنسخة عن لوحات لرسامين عالميين.

ـ لماذا لا تضع معها صورًا لقديسين؟ في الأقل يحفظونك من مخاطر البحر.

ـ الله الحافظ وليس القديسين.

ـ لا تجدّف، لهم شفاعة عند الآب. مَن يسمعك يحسبك من أتباع الكنيسة البروتستانتية!

ـ لماذا؟

ـ لأنهم يستكثرون على كنيستنا أن تطلب توسلات القديسين من أجلها!

ـ ألا تكفي الصور المعلقة في الصالة؟

ـ الإكثار منها بركة وإحسان، سأطلب من خالك سرجون أن يجلب مجموعةً لأضعها بنفسي هنا.

ـ لكنك ستحولين غرفتي إلى معرض للصور المتنافرة.

ـ لا شأن لك. اذهب إلى الشاطئ وإياك أن تنزل إلى الماء، أمس رأيت حلمًا مزعجًا.

ـ هل تخشين أن يختطفني منك؟ الماء ينبوع الحياة.

ـ لا تجازف، البحر غدّار، ليس له أمان.

ـ لا تهتمي، إنه صديقي.

ـ كل خرا واسمع كلامي.

ـ سأفعل.

رغم أنّ أمي تخاطبتي بألفاظ غير محتشمة أحيانًا، حسب ما يأتي

على لسانها، فإنها متديّنة، لا تفرّط في صلواتها. سعادتها القصوى تكمن في ارتياد الكنيسة، التي تسميها بيت الرّب وباب السماء، تحرص على الذهاب إليها مبكّرةً لتحضر القدّاس من أوله، ولا تبرحها إلا قبل غياب الشمس. تقصدها سيرًا على قدميها بلهفة، بكل اشتياق القلب، لأن بذل الجهد دليل على حب الرّب كما تقول. وقبل ذهابها تستعد لدخولها روحيًّا وجسديًّا، تصوم وترتدي ملابس نظيفةً. وبسبب ذلك كانت تتمتع باحترام الجيران، المسيحيين والمسلمين، وهي التي أجبرتني على لبس الصليب منذ صغري، ولا أزال ألبسه، مراعاةً لمشاعرها، رغم عدم تديّني. أما أبي فلا يحفل كثيرًا بالطقوس الدينية، يحضر القدّاس في الأعياد والمناسبات فقط، وله نزوات نسائية.

6

حين وطأت قدماي الزقاق وجدته، كالعادة، يعجّ برجال ونساء ومراهقين يعرضون للبيع، على طاولات صغيرة، أصنافًا من العطور الرخيصة والحلي والمسابح والخواتم والساعات والأحزمة ومحافظ النقود وعلب الدخان والمنشّطات الجنسية والواقيات الذكرية وترهات أخرى. ولا أستبعد أن بعضهم يخبئ في جيوبه حبوب هلوسة أو مخدّرة، لكنه لا يجرؤ على بيعها إلاّ للمدمنين على تناولها، وهو يستطيع أن يميزهم من وجوههم النحيلة المصفرّة وأيديهم وشفاههم المرتجفة.

ركبت سيارتي وقدتها على مهل لئلا أصدم أحد الباعة. استوقفني أحد المراهقين، واتّكأ على حافة النافذة، وعرض عليّ علبة منشط جنسي بحجم كف اليد، وقال:

ـ بالله عليك اشترها. فيها عسل ملكي ماليزي ممتاز يجعلك تستمتع ثلاث مرات في اليوم مدة أسبوع. لا تفوتها إنها آخر علبة.

ضحكت على طريقة ترويجه لبضاعته بتزويق الكلام، وأجبته:

ـ ما حاجتي إليها وأنا لا أزال أعزب؟

ردّ عليّ بخبث:

ـ والله ستحتاجها. معظم الزبائن الذين يشترون مني عزّاب مثلك، خذها لن تندم.

ضحكت ثانيةً، لكن هذه المرة على براعة المراهق في التكيّف السريع مع حجتي، ولبثت لحظات أنظر إليه، وهو يستقبل نظراتي باسمًا، متلهفًا إلى أن أستجيب لعرضه، ثم أخرجت ورقةً نقديةً من محفظتي ودسستها في يده، ومضيت في سبيلي، من غير أن آخذ علبة العسل.

افترعت أحشاء المدينة، ثم انعطفت إلى حي «السلام»، وتوغلت بعد اجتياز كنيسة مار كيوركيس الشهيد، من غير تخطيط، في شارع «الياسمين»، وهو شريان عريض للمواصلات، مزدحم بالمارّة، يقع فيه مبنى صغير ذو طابقين كنّا نقطن إحدى شققه زمن دراستي الثانوية.

توقفت قُبالَة دكان على بعد أمتار عن المبنى لشراء علبة سجائر. أعرف صاحبها منذ طفولتي، رجل بدين أشعث، ذقنه قصيرة تشبه القش، شارباه كثّان معقوفان إلى الأعلى مثل قرني جاموس، تحت عينيه قوسان سوداوان كالكدمات، يلف رأسه بشماغ. لكنني لم أجد عنده نوع السجائر التي أدخّنها، قال لي إنه نسي أن يعرضها على الرف، وطلب مني أن أنتظر، ثم استدار واتّجه إلى مخزن خلفي.

في غضون ذلك مرّ بجانبي فتى يحمل رِزمة صحف ويعتمر قبعةً، وعرض عليّ أن أشتري واحدةً، وأضاف:

ـ ألا تريد أن تقرأ أخبارًا عن الإرهابيين؟

ـ أعرف أن أوباما أمر بتكثيف الغارات عليهم.

ـ هذا خبر قديم، توجد أخبار جديدة.

ـ مثل ماذا؟

ـ أخشى إن أخبرتك لن تشري.

ـ ثق سأشتري.

ـ فرنسا دخلت على خط المواجهة، وأرسلت قوات خاصةً إلى كردستان.

ـ هل أنت من أرابخا أم نازح؟ من لهجتك يبدو أنك من الموصل.

ـ أنا من بلدة حمام العليل.

ـ هاتِ واحدةً إذًا. بلدتك لها فضل علينا، وأنت تمتلك مؤهلات إعلامي لا بائع صحف.

سرّه كلامي وأعطاني صحيفةً، فنقدته ثمنها ومضى في سبيله، ملوّحًا باحدى الصحف التي يحملها. قلت في سريرتي «فتى ذكي سترغمه الظروف على ترك تعليمه». آلاف الأُسر مثل أُسرته نزحت من حمام العليل وبلدات أخرى خوفًا من اعتداءات الإرهابيين. أذكر أنني زرت تلك البلدة قبل ثلاث سنوات رفقة أمي لتتعالج بمياه عيونها الكبريتية الحارة من مرض الصدفية الذي أصابها. كانت رائحة البخار الخارجة من تلك العيون نفاذةً ولاذعةً للغاية، وقد برأت أمي بالفعل من مرضها بعد استحمامها أكثر من مرة في حوض العين الكبيرة.

عاد صاحب الدكان بمجموعة علب سجائر، وشرع يدقق النظر فيّ وهو يقدّم لي واحدةً من غير أن ينبس بكلمة، كأنه يحاول أن يتذكّرني حسبما بدا لي، مع أنني نادراً ما كنت أشتري منه حاجةً في السنين الخوالي.

تفاديت نظرته، ونقدته ثمن العلبة وأخذتها منه، وبينما كنت أهم في إشعال سيجارة سألني:

ـ الستَ ابن هرمز الآثوري؟

أجبته:

ـ بلى، أنا نينوس.

ـ لم تتغير ملامحك مذ رحلتم، هل توظفت؟

ـ نعم، أعمل في التدريس لكني متفرغ الآن للدراسات العليا.

ـ كيف حال أبيك؟

ـ في خير.

ـ هل ما زال في نفس عمله؟

ـ نعم.

ـ أبلغه سلامي، وقل له يسألك أبو مهدي لماذا لا تزوره.

ـ سأفعل. لكن مَن أبو مهدي؟

ـ أنا.

ـ آسف عمي.

ـ وإذا نسيت قل له هاشم الكاكائي.

ـ لن أنسى.

لوّحت بيدي لأودعه فإذا به يستوقفني، ويتأملني من أعلى إلى أسفل ويسألني:

ـ هل تزوجت أم أنك ما زلت تضاجع يدك؟

شعرت بامتعاض من وقاحته، وبقيت مستغربًا لا أعرف بمّ أردّ عليه. دهمته بغتةً نوبة سعال حاد مصحوب بصوت غرغرة، وانتصب طرفا شاربيه، فغطى فمه براحة يده اليمنى، ولوّح لي بيده الثانية المرتخية طالبًا مني أن أبتعد. أدركت أنه معتلّ، أو مصاب بالتهاب فايروسي في صدره، فعجّلت بقطع الشارع صوب سيارتي.

في الأثناء أبصرت السيدة ديانا الكلدانية، جارتنا في المبنى الذي كنّا نسكن احدى شققه قبل سنين، وعشت فيها أجمل أيامي. كانت منهمكةً في حديث مع امرأة متناسقة القوام أمام البوابة، وصرت أتطلّع إليهما، محاذرًا أن ألفت انتباههما، أو في الأقل انتباه ديانا لئلا تعرفني. أصبحت مترهلةً، ازداد وزنها قليلًا، وكبرت عجيزتها، وتخضّب بالشيب شعرها الذي كانت تصبغه في الأيام الخوالي باللون البرغندي الغامق، ورسم الزمان على وجهها شيئاً من علاماته حتى بات يصعب تصور أنها كانت شابةً ذات يوم، ولعلها أصبحت جَدّةً لأولاد ابنها الذي يكبرني ببضع سنوات.

كانت ديانا جشعةً، مرائيةً، مهذارةً، خاليةً من الرحمة، وقحةً إذا غضبت، لا تبالي بما تقول، إذا انفلت لسانها من عقاله لا تستطيع أن تنتزع منها كلمةً طيبةً، تنتف ريش مَن يغيضها، شرهةً في جمع المال، بل لا حدود لشراهتها، طلّابة هدايا في كل مناسبة، وأحيانًا من غير مناسبة، تغلق بابها في وجه كل متسولة وسائل للمساعدة.. كانت في جملتها امرأةً ذات طباع سيئة إلى أبعد الحدود، أتذكّرها الآن بوضوح كما لو أنها على راحة يدي بكل ما فيها من بشاعة. كانت تربي ببغاء هنديًا ذكرًا داخل قفص كبير في شقتها، ثلاثي الألوان. حين اشترته لم يكن مدرَّبًا تدريبًا جيدًا على تقليد الأصوات، وكان ينفر منها في البداية، فاعتنت به كثيرًا، ومحضته الودّ

حتى ألفها وصارت قريبةً إلى نفسه، خاصةً بعدما أخذت تنوع له غذاءه، ووضعت له في القفص ألعابًا عديدةً مثل جرس ذي صوت رنان، وكرات بلاستيكية مجوفة، إضافةً إلى أغصان شجرات لمُحاكاة البيئة الأصلية. وشيئًا فشيئًا استطاعت أن تطلق لسانه، وتحفّظه عشرات الكلمات. وفي نهاية المطاف قلبت له ظهر المِجَن، باعته لتاجر طيور بأضعاف الثمن الذي اشترته به، متذرعةً بأن ابنها جعل لسانه، من غير علمها، بذيئًا يوخزها بألفاظ لاذعة، فظة، وأحيانًا فاحشة عندما يندفع الدم حارًّا إلى رأسه من شدة الهستيريا بسبب توبيخها له.

أما المرأة متناسقة القوام فقد بدت أصغر سنًّا من ديانا بكثير، في حدود الثلاثين، ذات مظهر جذّاب، ووجه لطيف ناعم يشع إثارةً، وفم صغير يتسم بالكبرياء، وشعر مقصوص أشبه بشعر غلام، تضع قرطين كبيرين في أذنيها، ورموشًا صناعيةً كثيفةً، وترتدي تنورةً ليلكية اللون، مشقوقةً من الأسفل نحو شبر تغطي ركبتيها، وتبرز تحتها ساقان فاتنتان شديدتا البياض، تشبهان سيقان فتيات عروض الأزياء، شبَهَ الماء بالماء، وعلى الأرجح أنها كنّة ديانا أو إحدى قريباتها.

بعد أقل من دقيقتين توقفت سيارة سوداء فارهة ذات دفع رباعي، من نوع كاديلاك، أمام المرأتين، ركبتا فيها على عجل فانطلقت بهما كالسهم، وكادت تدهس طفلًا لولا أنه قفز متنحّيًا جانبًا. تابعتها عبر المرآة حتى غابت عن ناظريّ، ثم رفعت بصري عبر نافذة السيارة إلى شرفة شقّة ديانا، فسرحت بعيدًا، أسترجع من وراء تخوم الذاكرة غرامياتي السرية مع ابنتها الصبية هيلين، التي نلت منها أول قبلة في حياتي، أعني من ثغر أنثى، جعلت قلبي يخفق، وغنمت من جسدها أول لمسة إيروسية، تفوق

الروعة، فجّرت كوامن الإثارة في أعماقي. حدث ذلك وأنا ملتصق بها في رقصة بطيئة، إثر بضع جرعات نبيذ، أثناء حفلة أقمناها في شقتنا لمناسبة عيد الميلاد، في حين كانت ديانا تساعد أمي في إعداد العشاء بعد أن نهلت كأسين من العرق. كانت هيلين ترتدي فستانًا قصيرًا ضيقًا بلون الكرنب الأحمر، مكشوف الظهر، بلا أكمام، تبرز فتحة عنقه العميقة نهديها المتوثبين، وقد أضفى عليها الضوء الخافت فتنةً لا تُقاوم.

ليلتها خطر لي أن أسألها عمّن أسماها هيلين، قالت:

ـ أمي اختارته لي باقتراح من خالي المقيم في أثينا، وهو اسم يوناني قديم يعنى النور، وكانت تحمله زوجة أحد الحكّام في ذلك الزمان.

استحضرتُ في تلك اللحظة خلواتي بها، ولذّة السويعات معها في غرفتها، حيث كنت أدرّسها مادة الجغرافية الطبيعية، التي كانت تشكو من صعوبة في فهمها، وتجد نفسها وقت الامتحانات كأنها فأر وقع في مصيدة، فلا تميّز بين العمليات الجيومورفولوجية الخارجية والداخلية، ولا بين التوزيع الأفقي والتوزيع اليومي والفصلي لدرجات الحرارة، وتفقد ثقتها بنفسها.

في نهاية كل درس كانت هيلين تفتح الموسيقى، وتسقيني كأس عصير، أو كأس نبيذ أحمر محلّي معتّق، من غير علم أمها، وتقول لي «خذ معها قبلةً ناعمةً يا نينو»، وتحيط رقبتي بذراعيها، مغمضة العينين كالقطة، وتلثم شفتيّ، فتلسعني أنوثتها المتوهجة، ويسكرني عبق عطرها، ويرفعني إلى ذرى شاهقة، ويغريني لاقتيادها إلى السرير ونيل مشتهاي منها، لكن بنت الكلب كانت تتمنّع، تتظاهر بأنها صعبة يشقّ عليّ نيلها، وتنفلت من يدي

كمَن تؤدي دورًا في فيلم ميلودرامي رديء، تاركةً إياي فريسةً لهيجان شرس، ليس بسبب تصنعها للفضيلة، بل تذرّعًا منها تارةً بالخوف من دخول أمها إلى الغرفة، وتارةً بالخشية من أن أسلب منها عذريّتها.

في كل مرة كنت أخدع نفسي قائلًا «ربما ستطيعني في المرة القادمة وتنقاد». الحق أنني كنت طائشًا لا أفكر في مآل توقي المجنون إلى جسدها.

آنذاك كانت هيلين في السابعة عشرة وأنا في العشرين، غير أنني كنت متقدّمًا عليها في الثانوية بمرحلة واحدة لأني تركت الدراسة سنتين ثم عدت إليها. كانت فائقة الجمال، تصدح الحياة على وجنتيها وشفتيها الزهريتين الشهوانيتين، ذات عينين واسعتين عسليتين كثمرة البلوط، ونهدين ناضجين تحت رافعتهما لا يناسبان سنّها، كأنهما تفاحتان صينيتان، وزوج من أدق السيقان التي رأيتها في حياتي، تضفر شعرها في غديرة طويلة تتدلى على ظهرها حتى خصرها، وتجمع بين العذوبة والمكر وتقلّب الأهواء والبراعة في إثارة إعجاب الآخرين بها، وحين تبتسم ترقص ابتسامتها على وجهها كلّه.

كانت هيلين تلتذّ بالروايات البوليسية، تواظب على قراءتها، تلتهمها كما لو أنها رقائق بطاطا، وقد جاءتها هذه العدوى من عمّتها العانس التي تهوى كل شيء بوليسي وغامض ومشوّش في السينما والأدب، في حين تدير هي، أعني هيلين، ظهرها للكتب الدينية التي تحتل نصف مكتبة أبيها بولص السرياني في الشقّة، رغم أنّ أمها، التي تتظاهر أمام الناس بالتقوى، كانت تشيع أنها تريد إرسالها إلى دير لتترهّب وتصير عروسًا للمسيح.

أثناء أوبتها من المدرسة كان لعاب شبّان كثيرين، ممن لا يجدون متنفسًا

لغرائزهم الطبيعية، يسيل لمرآها، وهي تسير مغترّةً بنفسها، محتضنةً كتبها ودفاترها.

أحيانًا كان يتبعها عدد منهم، بأعين شهوانية تبرق بالشبق، وآمال مستحيلة، ويرمون لها قصاصات ورق، في ظني أنها، لا بل من المؤكد، كانت تحتوي على أرقام هواتفهم وكلمات غزل فقيرة وتافهة. لكن هيهات، ففي الأخير كان عمال النظافة يكنسون تلك القصاصات مع قمامة الشارع لتنتهي إلى المكب.

في ظهيرة يوم من الأيام، وكان التيار الكهربائي مقطوعًا، سمعت طرقات رقيقةً على باب شقتنا، فتحته من دون أن أسأل مَن الطارق، فإذا به هيلين. كانت تستولي على وجهها حمرة مشوبة بالاصفرار، وترتعد وتتنفس بقلق، وفي عينيها تترقرق الدموع، كأنما مصابة بالحمى. استغربت من منظرها، وأمسكت بيدها لإدخالها إلى الشقة، لكنها لم تتزحزح من مكانها. سألتها:

ـ هيلين ما بك، لماذا لا تدخلين؟ هل تشكين من شيء؟

غمغمت قائلةً:

ـ اعترض أحد النكرات طريقي وقرصني من هنا بشدّة.

وضعت كفها على نهدها، وتابعت تقول:

ـ فعل ذلك ثم ولىّ هاربًا، وامتطى دراجةً ناريةً كان سائقها بانتظاره عند ناصية الشارع.

ـ هل توجعك القرصة؟

مسحت عينيها بمنديل، وقالت بمرارة:

ـ إي، توجعني كثيرًا كأنها لسعة حشرة.

تناولت يدها بكلتا يديّ، وقلت:

ـ ادخلي كي أتحقق من أثرها، لا أحد في الشقة سواي، أمي وأختي خرجتا ولن تعودا إلاّ مساءً.

أطرقت رأسها، ولبثت شاردةً لحظةً، ثم قالت:

ـ لا، لست راغبةً في الدخول.

ـ حسنًا، هل رأى الناس ابن الكلب وهو يقرصك؟ ألم يتعقبه أحد؟

ضمّت إحدى يديها إلى صدرها، وقالت:

ـ ما أدراني؟ لحظتها تألّمت، لم أقوَ على التفوّه بكلمة، شعرت كأني عزلاء في صحراء، وحين نظرت إلى الخلف لمحت النذل يقفز إلى ظهر الدراجة. لبثت بعدئذ حائرةً لا أستطيع فعل أي شيء، ثم جئت مسرعةً إلى المبنى، وخطر في بالي، وأنا أرتقي الدرج، أن آتي إليك قبل أن أدخل شقتنا، وأروي لك ما جرى لعلك تعرفه من أوصافه.

ـ كيف لي أن أعرفه؟

ـ لا بدّ أنه من أبناء الحي وإلاّ لما عرف اسمي.

ـ هل نطق باسمك؟

ـ إي.

ـ ما أوصافه؟

ـ شاب طويل القامة، وجهه نحيل، وعيناه زائغتان، ولحيته مشعثة،

وشعره مقصوص على طريقة المارينز. في البداية استوقفني وعرض عليّ بيع زجاجة عطر نسائي بثمن بخس زاعمًا أنها أصلية، وحين أشرت له بالرفض مدّ يده إلى صدري وقرصني بشدّة ثم فرّ مسرعًا.

ـ كأني رأيت شخصًا بهذه الأوصاف.

ـ أنا واثقة من أنه يسكن في حيّنا.

تمهّلت لحظةً، ثم قلت:

ـ لن آلوَ جهدًا لمعرفته، لكن ما الفائدة يا هيلين؟ ماذا بوسعنا أن نفعل ونحن ضعفاء في البلد. عليكِ من الآن فصاعدًا أن تنتبهي لنفسك.

ـ كيف؟

ـ أقول لك بمنتهى الصراحة: ما من سبيل إلاّ أن تموّهي على جمالك، إخفِه عن أعين الناس، كفي عن ارتداء هذه الملابس الضيقة التي تبرز مفاتنك، وتوحي للناس بأنك فتاة مغناج طائشة.

قطبت حاجبيها من الدهشة:

ـ هل تريدني أن أرتدي جلبابًا إسلاميًّا وأضع حجابًا على رأسي؟

ـ لا، أعني لا أعرف، هيا أدخلي.

قالت وهي تهمّ بالدخول، بعد أن تلاشى تمنّعها:

ـ لكنني لن أريك نهدي.

قلت:

ـ لا أطمع في لمسه يا هبلاء، بل سأبلل قطعة قماش بماء مثلج وأضعه عليه. هذا كل ما في الأمر.

لسوء الطالع لم تدم علاقتي بهيلين طويلًا، سنة وبضعة أشهر، حدث بعدها ما لا يخطر في البال على الإطلاق، لغز من تلك الألغاز التي يصعب حلّها، اختفت فجأةً وكأنها حلم تلاشى مع انبلاج أول تباشير الفجر، أو أن ريحًا حملتها وألقت بها إلى حيث لا أعلم.

في ما بعد، عقب أشهر علمت أنها سافرت إلى الأردن مع قريب لها حاصل على اللجوء الإنساني في أميركا، ومن هناك إلى ديترويت بعد زواجهما. هذا ما أخبرتني به أمي نقلًا عن أمها، فوقعت فريسة ألم فظيع.

لا أدري متى تمّت خطوبتهما ولا كيف قبلت به زوجًا، فقد تبيّن لي لاحقًا أنه شخص وضيع، أتفه من قشرة بصلة، تدور حوله نميمة بأنه ديّوث. لكن يبدو أن حلم السفر إلى بلاد العم سام أعمى بصيرتها، أو أنها خطّطت لاتخاذ ذلك الوضيع جسرًا يوصلها إليها، ثم تنفصل عنه بعد حين، أليس للمكر أفانين كما يقولون؟

كان الأمر عسيرًا جدًا عليّ، بلغ بي التأثر كل مبلغ، اكتنفتني لوعة قاهرة، كأن هيلين ابتداء الحياة وانتهائها، وركبني الحزن، وخُيّل إليّ أنني لن أُشفى من هواها، وكدت أتعثر في دراستي، ولبثت أفكّر فيها آناء الليل وأطراف النهار، أحسّ بوحشة لفراقها، لتلاشيها كالدخان، أستصعِب عدم وجودها في حياتي، كأني مضغوط بين حاجزين اسمنتيين، أو أسير على سطح من زجاج هش، أو أطأ دربًا مفروشًا بالجمر يحرق قدميّ.

أكثر ما كان يقبض روحي ويثير حنقي ويقضّ مضجعي تخيّلُها في الفراش، مستسلمةً لمصير حماقتها، تسفح أنوثتها، تهدر جمالها مع ديوث

ليس أهلًا لها، ولا جديرًا بها، يتحسس جسدها ويعبث بتضاريسه وشعابه وكأنه يمتلكها لمجرد أنه أوصلها إلى أميركا.

كانت تلك التخيّلات أشبه بسوط يجلدني، يعذبني، يسلخ جلدي، وأخذت أنحي باللائمة على ديانا وزوجها البليد، عديم الشخصية، الذي لا يحل ولا يربط، ولم يزحزح تهالكه على مطالعة الكتب الدينية بلادته قيد أنملة، لأنهما وافقا على تلك الزيجة البائسة، متناسيين ادعاءهما بأنهما ينويان إرسال البنت إلى الدير لتترهب، توهّمًا منهما بأن كنوز الدنيا ستُفتح لها متى ما هبّت رياحها في أميركا، وتعيش مرفّهةً عيشةً رغيدةً مثل أميرة، وسوف يكون بميسورها أن تلمّ شملهما معها. وقد تأكّد لي حين رأيت ديانا بعد عشر سنين أن البنت لم تحقق لهما حلمهما، لسبب ما، فتهلّلتُ شماتةً بهما.

في ما بعد عقدت عزمي على إلقاء هيلين في غياهب النسيان، بل محوها من ذاكرتي مرةً واحدةً وإلى الأبد وكأنها لم توجد قط، ووجدت أن أفضل وسيلة هي البحث عن فتاة تملأ حياتي وتكون سلواي، خاصةً بعد انتقالي إلى الجامعة. لكن ذلك لم يكن سهلًا، بقيت الصبية ساكنةً في أعماقي طوال السنة الدراسية الأولى، أتذكّر بين الفينة والفينة اللحظات التي كنت أقضيها معها. وما إن حلّت السنة الثانية حتى تعرّفت إلى طالبة أرمنية اسمها سيرانوش تدرس علم النفس في الجامعة. تعرّفت إليها بالمصادفة في مكتبة الكلية، وبفضل حديثها معي نلت دعمًا نفسيًا صدّع سطوة هيلين على مشاعري، شيئًا فشيئًا، حتى بتّ لا أتذكرها إلاّ في أحايين متباعدة، مع أنّ علاقتي بسيرانوش لم تقم على تجاذب عاطفي، أقلها من جانبي، فقد كانت أكبر مني سنًا، ولا تتمتع بجمال يدفع إلى الغرام بها، في حين

أن الأرمنيات يُضرب المثل بجمالهن، وأنا بطبعي أميل إلى الحسناوات الصغيرات.

قالت سيرانوش في يوم من الأيام، ونحن نتحدث عن العلاقات العاطفية في الوسط الجامعي، «إن عدم التوافق في السن لا يحول دون التقاء قلبين، الحب أقوى من هذا الحاجز»، وضربت مثلًا بشكسبير الذي أحب امرأةً تكبره بسبع سنين وتزوجها. غير أني تحاشيت الخوض في الموضوع، إدراكًا مني أنني لن أستطيع مجاراتها في مناقشته، وتحدثت عن أمور أخرى.

من ناحية أخرى كانت سيرانوش على جانب كبير من الاستقامة، ذات عقل ناضج، منفتح، تهتم كثيرًا بدراستها، وتنتظر أن تتخرج في نهاية تلك السنة، ولم تكن لقاءاتي بها تتعدى عالَم الجامعة.

كانت تفضّل العالِم النفساني ألفرد أدلر على فرويد ويونغ، وتنحاز إلى نظرته للإنسان نظرةً حقيقيةً عميقةً كما هو، حسب رأيها، لا تبالغ به وتجعله فوق منزلته، ولا تنزل به ليكون كالحيوان أو كالآلة. وأذكر أنني قرأت، بتأثير من سيرانوش، العديد من كتب علم النفس، غير أنني انحزت، على النقيض منها، إلى نظرية فرويد حول مراحل نمو الرغبة الجنسية عند الإنسان، وكانت تفسّر انحيازي للنظرية بمنتهى الذكاء.

لم انقطع عن التواصل مع سيرانوش، بعد هجرتها إلى أرمينيا رفقة أسرتها. صرنا نتحدث بالماسنجر في أمور شتى، ولاحظت أنها تتفاخر بكونها أرمنيةً، وتعظّم أرمينيا؛ مأخوذةً، كأنها منوّمة مغناطيسيًا، بجمال يريفان، تبالغ في الزهو بمعالمها وتاريخها، وترفع من قدر أهلها كأنهم

ملائكة، وتتنكّر، من غير لبس، لهويتها العراقيّة. وفي نوع من الرثاء المبطّن لي تغمز من قناتي، مشيرةً إلى عدم وجود دولة تمثّل هويتي الإثنية يمكن أن أهاجر إليها، وأنّ حلم تأسيس دولة أو حتى إقليم باسم «آشوريا» أو «آشورستان» قبض ريح. ولأن دوافعها كانت واضحةً بالنسبة لي كنت أتغاضى عن ذلك، وأمضي في إطلاعها على الكوارث التي تترى في البلد، وفضائح الطبقة السياسية الفاسدة، وجرائم العصابات والميليشيات المسلحة خلف ستار من الصمت الخانق، الذي يشبه الجمر المخبّأ وراء رماد.

ذات يوم كتبت لي رسالةً تقول فيها «أود أن أنبئك بخبر سارٍّ. تعرفت إلى شاب وسيم أصغر مني، متخصص في الآثار أيضًا، لكنه فضّل أن يكون له عمل خاص، مطعم يجتذب عشرات السيّاح، وفي غضون أيام أفضى تعارفنا إلى علاقة حب، وقد توّجها الشاب أخيرًا بأن خطبني من أهلي أمس، وسنتزوج قريبًا. أتمنى أن يحالفك الحظ وترتبط بواحدة أصغر منك سنًّا بعشر سنين».

أستوعبت مغزى رسالتها، وكتبت لها «عزيزتي سيرانوش، أبارك لك خطوبتك، وأرجو أن نظل صديقين.. لن أنسى فضلك عليّ».

لكن تبيّن لي، لاحقًا، أنها ما عادت راغبةً في التواصل معي، ولم يطل بها الأمر حتى توقفت عن الرد على رسائلي!

7

بُعيد انقضاء ثلاث سنوات على سفر هيلين، فاجأتني برسالة بعثتها إلى بريدي الإلكتروني أعلمتني فيها أنها ترمّلت، مات زوجها في حادث اصطدام سيارة غامض، غير أنها لا تزال صلبةً وليست حزينةً، خلاف ما يحدث للنساء اللواتي يترمّلن، كونها لم تكن منسجمةً معه، وفي مستطاعها أن تشقّ طريقها بنفسها وجهدها. وأفاضت في وصف حالها، والأفكار التي تراودها لتأسيس حياة جديدة.

تعزّزتُ ولم أردّ عليها لأشعرها بأنني لا أحفل بها. وما هي إلا شهور حتى وصلتني رسالة ثانية منها باحت لي فيها أنها تعرّفت إلى رجل أميركي من أصول لاتينية، ينتمي إلى الطبقة المخملية، يقيم في مدينة سانتا كروز بولاية كاليفورنيا، وقد خطبها وأغرقها في بحر ثروته، وسيتزوجان ويقضيان شهر العسل في ريو دي جانيرو، حيث يسكن أهله، وأنشأت تتغنى بالشاطئ البحري للمدينة، وكيف تستمتع بجمال مياهه الزرقاء وهي تطل إليه من شرفة الشقة التي يمتلكها خطيبها.

رجّحت أنها تكذب، ليست أكثر من عشيقة أو محظية لذلك الرجل، الذي يُحتمل أن له من العمر ثلاثة أضعاف ما لها، تساكنه من غير زواج، وتعيش على قفاه بعد أن أصبحت عاجزةً عن تدبير معيشها.

شعرت حيالها بالشفقة، وكتبت لها معزّيًا بوفاة زوجها الراحل، لكن بعبارات وجيزة، متجنّبًا التطرّق إلى موضوع زواجها الثاني. ومن يومها كفّت عن مراسلتي، وما عُدت أعرف شيئًا من أخبارها.

8

عندما بلغت مشارف الأرض الرملية المنبسطة على الشاطئ ركنت سيارتي في موقف السيارات المفتوح على البحر. كانت تصطف فيه، كالعادة، أنواع مختلفة من العجلات: سيارات صالون، وستوتات تسحب أحواضًا شبيهةً بأحواض البيك آب، تعود ملكيتها لصيادي السمك، أو لتجار صغار يشترون منهم ثمار البحر بأسعار أقل من أسعارها في سوق الجملة. وثمة عربة متنقلة تبيع أطعمةً سريعة التحضير وعصائر ومشروبات، ذات فتحتين صغيرتين من الجانبين، مُدوَّن عليها عبارة «كُل واشرب حتى تشبع»، يديرها شخصان، أحدهما شاب شعره محلوق على الصفر، والثاني في منتصف العمر.

قال لي الشاب حال ترجّلي من السيارة:

ـ إن كنتَ تتعاطى البيرة لدينا ألمانية وهولندية.

ـ شربت في البيت، لكن سأبتاع منك بعد عودتي من البحر.

ـ لن تجدنا هنا، نحن على وشك أن نغادر، وأنصحك بألاّ تطيل بقاءك.

ـ لماذا؟

ـ أما سمعت الأخبار؟

ـ أية أخبار؟

ـ ستهب ريح عاصفة.

ـ لا أظن، الطقس لطيف جدًا اليوم.

تطلّعت إلى البحر، تراءى لي فاتر الهمة، صفحته ملساء كالزجاج من دون حركة، تنعكس عليها أشعة الشمس، وفي العمق زورق إنقاذ ويخت للنزهة وقوارب صيد خشبية.

وشوش كلام الشاب ذهني، فشققت طريقي منحدرًا السفح بخطوات حثيثة، بدلًا من أن أسلك الطريق الآمن الذي يسلكه الناس للوصول إلى الشاطئ.

كنت جذلًا كأني على موعد غرامي مثالي، وكان الحصى تحت حذائي يصدر صريرًا. تعثّرت ببعض الأنقاض: إطارات وخرق وصناديق وطاولات وزجاج مكسور وعلب فارغة وأقفاص ومقاعد بلاستيكية مهشمة، وكدت أسقط على وجهي، لكنني تمالكت واستويت على قدميّ، وصببت اللعنات على السفلة الذين رموا تلك المخلّفات.

كان الشاطئ مكتظًّا بالناس، والطقس هادئًا، لا ينذر بتغيّر سيء، يسمح بالتفرج على مناظر السنونوات الرشيقة المحلّقة على ارتفاع منخفض، والنوارس البيض الشبيهة بالمناديل التي تتراشق في رحاب الفضاء، وطيور البجع المهيبة على مقربة من حافة البحر، وهي تمرح وتقفز قفزات متتاليةً، أو تغوص في الماء لالتقاط الأسماك وقناديل البحر الصغيرة، وبراعة طيور الغاق في السباحة والغوص في الماء لخطف الأسماك وتخزينها في أجربتها. «آه لو كان عمران معي ليشاركني هذه المسرّة» قلت في دخيلتي، وأنا أكاد أبلغ الشاطئ.

لكن الجوّ تردّى فجأةً، على غير المعتاد في أول الخريف، واكفهرّ في لحظة خاطفة، كأنما أصابه الجنون، ووجدت نفسي بين فكّي ريح شرقية عاتية يقشعرّ لها البدن، آخذةً بالاشتداد، متداركة الهبوب، تخلع أسقف الأكشاك على بعد قليل من الشاطئ، وتدفعني بضراوة إلى البحر الذي صار مخيفًا، يترجرج مثل مرآة تعلو وتهبط، وراح صفيرها المدوي يدقّ طبلتَي أُذنيّ حتى ليكاد يوقرهما، ويقذف الرعب في قلبي كما لو أني واقع في شَرَك. وبعكس اتجاه الريح أخذت تجتازني كلاب هائمة على وجوهها، تنهب الرمل نهبًا كأنها استشعرت إعصارًا وشيكًا آتيًا من أعماق البحر.

صرت أسعل، وقلت في نفسي «ليتني صدّقت تحذير الشاب»، وسحبت منديلًا من جيبي وكممت أنفي، وبحثت غريزيًّا عن مكان ألوذ به، فلم أجد سوى المغارة المطلة على البحر، قُبالة المرفأ الطبيعي الصغير، المغارة التي اعتاد بعض الشبّان ارتيادها، وافتراش قاعها المغطى بالرمل لتعاطي الكحول، خلسةً، بعيدًا عن أنظار الناس.

لم يسبق لي أن غشيت تلك المغارة لكأن بيني وبينها خصومة. كنت أكتفي، مرات عديدةً، بالوقوف أمامها، والنظر إلى جوفها عبر فوهتها. كان وجودها في الشاطئ يشكّل لغزًا، رغم شيوع حكايتين عنها، الأولى فحواها أن ناسكًا زرادشتيًّا، ليس من أهل أرابخا في الأصل، ولا يُعرف منبته، كان يلجها فجر كلّ يوم، أثناء احتلال الإيلخانيين الوثنيين للبلاد، ليتعبّد فيها ويتأمل في الخير والشر حتى بزوغ الشمس، وحين كان يغادرها لا يراه الناس كأنه يرتدي طاقية إخفاء. وإذا لم تكن الحكاية خرافةً فإن الرجل ربما قدِم من إيران واستوطن المدينة، حاله حال المئات من المستوطنين الذين حملتهم أرجلهم إلى البلد بدوافع مختلفة.

الحكاية الثانية تقول إن جماعةً من الغجر كانت تتخذ منها مأوى في أشهر الربيع، أيام الاحتلال العثماني، وتقيم داخلها حفلات غناء ورقص، لقاء حصولها على المال أو المؤونة، يحميها الجندرمة من تحرّش الأشقياء واستفزازاتهم.

خلعت قميصي حالما دلفت إلى المغارة، ونفضت عنه ذرات الغبار، وأزلت ما التصق منها بجسمي؛ شاعرًا بالخيبة وبطعم مرارة في حلقي.

كانت باردةً إلى حد ما، تعبق برائحة تشبه رائحة الطمي على ضفاف الأنهار التي تجري بكسل، ومساحتها رحبة، يبلغ عرضها نحو عشرة أمتار، وعمقها أكثر من خمسة عشر مترًا، دانية السقف، تتدلى منه رواسب كلسية (هوابط) تشبه الثريات، نسجت بينها عناكب ضئيلة بيوتًا لها بترتيب متناسق المسافات، لكنها لم تبعث في نفسي أيما هواجس مقلقة، فقد كنت معتادًا عليها منذ طفولتي.

كان الضوء المنسكب على المغارة من الخارج يكفي لرؤية رسوم وكتابات منقوشة على جدرانها الصخرية، على هيئة حيوانات وطيور مختلفة: غزلان ووعول وماعز جبلي ونمور وذئاب وثعالب ونسور وكراكي، وكتابات مفرطة في بدائيتها وغموضها، لعلّها تعاويذ لاستدعاء قوى خارقة، أو علامات مشفّرة لصلوات أو لتضرعات أو لإرشادات دنيوية، غير أنني لم أدقّق النظر فيها لأن ذهني كان منصرفًا إلى البحر، الذي صار موجه يندفع عاليًا، من دون هوادة، إلى كتل الصخور، بعضه راكبًا فوق بعض، لينقضّ عليها في النهاية صاخبًا هادرًا، كأنه يخوض حربًا ضروسًا ضدها، إلاّ أنه يتكسّر فوقها ويتراجع مخذولًا، مخلّفًا وراءه ذؤاباتٍ بيضاء وفقاعاتٍ سرعان ما تتطاير في الهواء وتختفي، ثم يعاود الكرة من غير طائل.

أصبح الشاطئ مقفرًا في وقت لم يجاوز الثالثة عصرًا، وكأن الزمن توقف، لا شيء سوى أصوات متداخلة تنبعث من مكبرات الصوت في المساجد تتضرع «اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أُمِرتْ به، ونعوذ بك من شرّ هذه الريح، وشرّ ما فيها، وشرّ ما أُمِرتْ به».

كان الوضع أشبه بكارثة، أين فرّ المتنزهون؟ أين اختبأوا؟ هل تبخروا؟ مَن يرى الشاطئ لا يصدّق أنه قبل دقائق كان يعجّ بعشرات الرجال والفتيان والنسوة والآن أصبح خاويًا، اختفت كل معالم الحياة فيه.

مرّت ساعة وأنا في تلك الحال، استأت وتعاظم ضيقي من عزلتي في المغارة، كما لو أنني محبوس في مصح عقلي، أرصد قوارب صيد السمك الصغيرة، التي يحثّ أصحابها على التجذيف، في مواجهةٍ شرسةٍ مع عصف الريح وتلاطم الأمواج، ساعين إلى بلوغ الشاطئ قبل أن يلقوا حتفهم ويصبحوا فريسةً لآفات البحر.

خلف تلك القوارب كان يظهر للعيان مركب شراعيّ بصاريتين وصفّين من المجاذيف، يلتمع كالفضة تحت أشعة الشمس، لا يفتأ يعلو ويهبط في صراعه مع العُباب من أجل بلوغ المرفأ.

لم أكن أحسب، بتاتًا، أن أرى نظيرًا لذلك المركب، بل كان محالًا أن أتخيّله، تهتز صاريتاه كسعفتين وهو يترجرج على سطح الماء المضطرب. وثمة سرب نوارس يرفرف على ارتفاع منخفض؛ مقاومًا الريح. قلت في سرّي «لا ريب في أن أمرًا وخيمًا يلوح في الأفق».

بعد قرابة نصف ساعة خفّ غضب الريح، ثم سكن عزيفها بغتةً، فانحسر عني شعور الفزع، ونزلت السكينة على قلبي، كأنما انزاح عن

صدري حجر ثقيل الوطأة. أما البحر فقد كفّ عن الهياج وثاب إلى هدوئه، وعادت أسراب الطيور تحلّق فوقه، تارةً إلى الأعلى وتارةً إلى الأسفل، وتمكّن الصيادون، الذين كان أكثرهم شبّانًا بسراويل قصيرة ذوي أجسام قوية، من الوصول إلى الشاطئ بقواربهم سالمين، وربطوها إلى أوتاد مغروزة إلى منتصفها في الأرض، رغم أنّ التجذيف ضد اتجاه الريح أنهكهم كما لو أنهم كانوا يشقون طريقًا وسط دغل كثيف.

غذّ عدد منهم السيرَ، قانطين، صوب عجلاتهم في موقف السيارات، حاملين زنابيل كبيرةً منسوجةً من السعف، وصناديق بلاستيكيةً بطريقة تنبئ عن خلوها من السمك، وعن خيبة سعيهم وراء الصيد ذلك اليوم، في حين انشغل آخرون بخطف الأسماك والحلازين والسراطين، التي وهبتها الأمواج للبر، قبل أن يبرحوا الشاطئ.

استطعت أن أميّز أحد هؤلاء الصيادين من حدبته، فلطالما رأيته في حيّنا يقود ستوتةً مزركشةً يبيع بها الأنعُل والمجوهرات المقلّدة والألعاب والحاجات المنزلية الرخيصة، وهو يرتدي ملابس هجينةً، ويبث من جهاز تسجيل أغاني متعددة اللغات لينتفع من الجميع، ويكاد يعرف أسماء وكُنى معظم النساء اللواتي يتبضعن منه. ويبدو أن تجارته تلك قد كسدت بسبب كثرة البائعين من أمثاله، فتحول إلى صياد سمك.

شعرت بجفاف في حلقي وضيق في صدري، فتمنيت أن لو أعثر على قنينة ماء متروكة في المغارة، ورأيت أنه من الصواب أن أبحث فلربما أعثر على واحدة، وفيما طفقت في البحث وقعت عيناي على شريط يشبه حمالة حقيبة، يظهر جزء منه والباقي مدفون في الرمل. أثار فضولي فسحبته، وإذا به ينتهي بالفعل إلى حقيبة مصنوعة من الكتّان، يبدو أن شخصًا ما دفنها

لسبب ما، أو أنه كان ثملًا فنسيها. فتحت سحّابها بشيء من القلق لأفاجأ بوجود غليون في داخلها مع قارورة نبيذ بيتي، لونها أخضر صنوبري ضارب إلى البني المحروق.

ركزت اهتمامي على القارورة وأهملت الغليون، رفعت السدادة عنها بعناية، وشممتها بطرف منخريّ، فلفحتني رائحة مغرية أقرب إلى رائحة السنديان الضارب إلى الفانيلا. «هذه هي فرصتي لأروي ظمأي» قلت.

أخذت أول رشفة صغيرة وتركتها تتدفق على لساني، شعرت بسلاسة طعم النبيذ، وهو ينزل مزغردًا في صدري، وكأني ما ذقت أزكى منه في حياتي كلها، ثم أتبعتها برشفة ثانية أقوى منها جعلتني أشتهي سيجارةً. أخرجت علبة سجائري، وطفقت أرتشف مع كل ضربة دخان في رأسي رشفةً أقوى من السابقة.

خطر في بالي أن المغارة، التي تشبه سردابًا مهجورًا، تصلح أن تكون حانةً تشرف على البحر، فقط لو اعتنت بها دائرة السياحة، وضمّنتها لمغامر مسيحي لا يهاب المتشدّدين. أليس ذلك أفضل من تركها مرتعًا سريًّا لنزوات الشبّان؟

كنت حريصًا، أثناء ذلك، على متابعة دنوّ المركب الشراعي، الذي أصبح شغلي الشاغل، يملأني الفضول لمعرفة مَن على متنه. بدا لي شكله، وأنا أتطلّع إليه بالمنظار، أقرب إلى المراكب في الأفلام التاريخية، لم يعهد بحرنا مثيلًا له.

حين أجهزت على ثلاثة أرباع القارورة داخلني الخدر، وشعرت بنعاس رقراق، فملأت الحقيبة بالرمل، واستلقيت على ظهري، جاعلًا منها وسادةً تحت رأسي، وواصلت استطلاع البحر، متأرجحًا بين النوم واليقظة.

أجفلني بغتةً أزيز تردد صداه داخل المغارة، ثم صار خشخشةً مريبةً. استويت جالسًا، وأخذت أتلفّت حولي مذعورًا فإذا بشبح كائن ضئيل يلوح على الجدار الصخري الأيسر، ذي وجه قاتم يثير الاشمئزاز، بل يستحيل أن يرى المرء وجهًا أكثر قتامةً منه، يخزرني بعينين ساخطتين، ويتموّج كإفعوان، وما إن رآني مبهوتًا، فاغر الفم حتى راح يجأر بكلام صاخب عصي على الفهم.

لبث في تلك الحال نحو دقيقة أو أكثر ثم تحول إلى ما يشبه تمثالًا من الرخام، وأسنانه كلها ظاهرة للعيان، ثم اتخذ شكل حيوان مفترس يبعث الرهبة في النفس، ثم انقلب إلى مثل (لا أدري مثل ماذا) قبل أن يختفي عن ناظريّ كما لو أنه انتصر عليّ انتصارًا ساحقًا.

خلت أنه شبح الناسك الزرادشتي في الحكاية الثانية، انبثق من أعماق ماضيه، أو تراءى لي ليفسد نشوتي، ويقرّعني لأني انتهكت حرمة مكان تعبده (لا بدّ أنه وجده سلوكًا شريرًا).

في غمرة تخبطي كان وجيب قلبي يتسارع، وشعرت بدمي يدوي في داخلي، وخفت أن يعاود الشبح الظهور ثانيةً ويمسني بسوء، وتحول خوفي إلى هلع، فطوّحت بالقارورة بعيدًا، ماذا كان بوسعي أن أفعل، لم يكن أمامي خيار آخر، ورسمت إشارة الصليب على صدري، وقررت أن أنصرف. لملمت نفسي وحبوت متسللًا إلى الخارج كحلزون ينزلق من قوقعته، ثم استجمعت ناهضًا وابتعدت خطواتٍ عن المغارة.

وجدت كارتونةً ملقيةً على الرمل فتربّعت عليها، متعكّر المزاج، وشرعت في استنشاق الهواء ببطء، ومن حين لآخر صرت أحوّل بصري

إلى فوّهة المغارة، كنت لا أزال وجلًا من ذلك الشبح، وتساءلت في سريرتي «تُرى أكان يلوح لمتعاطي الخمور أيضًا أم أنه لاح لي فقط لأنني كنت وحدي؟»، ثم رحت أحملق إلى البحر وأتملّاه، يغمرني فضول لمعرفة سر المركب الشراعي الذي صار يزداد مهابةً كلمّا اقترب.

تنبهت إلى أن تغييرًا طرأ على الطقس بعد توقف الريح، كُسرت حرارته وأصبح أميَل إلى البرودة، ولفحتني نسائم قادمة من البحر غمرتني بالانتعاش، مع أن الوقت كان لا يزال باكرًا لم يبلغ الخامسة بعد، واستعاد الخط الفاصل بين الماء والشاطئ زهو طيور البجع وقفزاتها على نحوٍ مضاعف، وهنالك على أسطح البنايات القريبة من محيط الشاطئ صبيان وشبّان يهتفون ويصفّرون ويصفّقون، ويهزّون أذرعهم عاليًا، أو ويرفعون أيديهم بإشارة النصر، مبتهجين، كأنما يحتفلون باندحار الريح.

بعد دقائق نزلت قطرات مطر خفيفة، لم تستمر طويلًا، لكنها جعلت الجو شفيفًا، وفي البحر صارت الأمواج صغيرةً تجري إلى الشاطئ، وحينما تبلغ الصخور المدببة والملساء تلعقها بألسنتها، ثم تلقي عليها زبدها فتفقد روحها وتموت في رفق.

تراءى لي المشهد مثيرًا، أُخذتُ به كأني طفل تقع عيناه عليه أول مرة، وانتابتني هواجس عن علاقة البحر باليابسة: لماذا تكون صاخبةً عنيفةً مراتٍ وأليفةً مرات أخرى، حتى أن أحدهما يبوح للآخر بأشجانه ولواعجه الوجدانية؟ هل تشبه علاقتهما علاقة الإنسان بأخيه الإنسان؟ لا لا، ليست كذلك، صحيح أن البحر يهب اليابسة الكثير من المنافع لكنه يسبب لها الكثير من الفواجع في الوقت نفسه، وكذلك تفعل اليابسة حين ترمي في البحر مخلّفاتها وسمومها وزيوتها القاتلة.

في أثناء ذلك بلغ المركب حافة المرفأ، مدفوعًا بريح خفيفة أخذت تهبّ من جهة الغرب، ورسا في غضون دقائق قلائل، وأُنزلت الأشرعة، وألقى البحّارة المرساة، وهبط عدد وافر من الرجال وأربعة نساء، وأخذوا يخطون على لوح العبور إلى الرصيف. أثاروا فضولي فاستخدمت المنظار لأرقبهم عن كثب. كان يتقدمهم رجل ذو شعر كثيف يعتمر غطاء رأس يشبه الطربوش، وله لحية طويلة مسترسلة تصل إلى صدره وتمنحه هيبةً، فبدا لي أنه زعيمهم.

اصطفّ الجمع، مثل فصيل عسكري، خلف مصاطب خشبية مثبّتة في الرصيف، وصوّبوا أبصارهم ناحية قلعة المدينة، منبهرين من مدخلها الضخم ذي القوسين المدببين نصف الدائريين. لكن الزعيم ما لبث أن جلس على إحدى المصاطب جلسةَ رجل رزين ذي صلابة حازمة، وتبعه فتى إلى ميمنته، ثم النساء الأربع على مصطبة مجاورة إلى ميسرته، وفجأةً لفت انتباهه الرمل المائل إلى الصفرة على بعد خطوات عنه، وأخذ يحدّق إليه باستغراب شديد، وقد بدت عيناه تحت حاجبيه ثاقبتين تتأججان شراسةً، ثم نهض من مكانه، مكفهر الوجه، واتجه إلى الرمل، وجثا على ركبتيه، ومال بجذعه إلى الأمام وغرف حفنةً منه، وأنشأ يتفحصه ويشمّه، ثم فتح يده وتركه يتسرب من بين أصابعه.

كان الرجال أشدّاء مفتولي السواعد، ذوي لحى طويلة أيضًا، يغطون رؤوسهم غزيرة الشعر بخوذٍ نحاسية، ويرتدون ثيابًا من ماضٍ قديمٍ موغلٍ في القِدم، ويتسلّحون بسيوف، ودروع جلدية، وأقواس ونبال، ورماح تبلغ مثل قاماتهم طولًا، ويحمل بعضهم صرراً وصناديق بأحجام مختلفة عليها أقراص مجنّحة بارزة، خِلت أنها معبّأة بالجواهر. وثمة اثنان يحمل أحدهما

بوقًا عاجيًّا ضخمًا مصنوعًا من ناب فيل، منقوشًا بكتابات مسمارية ونخلة ذات جذع طويل (شجرة الحياة)، ويمسك الآخر بسلسلة حديدية تنتهي إلى ربقة تحيط بعنق فهد ينحدر من زاوية عينيه خطّان أسودان، وكلاهما يتقلد سيفًا أيضًا.

أما النساء فقد كانت ثلاث منهن في أوجّ تفتّحهن، هيفاوات، لهن أجساد تحبس الأنفاس، تشي رقّتهن الأخّاذة بأنهن أميرات، إحداهن صبية غضة العود، يانعة مثل ثمرة تين في أول نضوجها، ملاحتها لا أحلى منها ولا أشهى، واثنتان في نحو العشرين لا تقلّان أنوثةً عنها. كنّ يغطين الأجزاء العليا من رؤوسهن بأحجبة معقودة من الخلف، ويتركن شعورهن مسبلةً على أكتافهن، ويزيّن رقابهن بقلائد من أحجار كريمة، ويرتدين فساتين طويلةً ذات أكمام موشحة بالزخارف، فوقها شالات مطرّزة بنقوش مذهبة وحبات خرز وحواشي مشرشبة، وينتعلن أحذيةً من غير كعوب أقرب ما تكون إلى الصنادل، في حين كانت الرابعة تحت الخمسين من عمرها، لا تزال تحتفظ بقسط وفير من الجمال، تطوّق رأسها بإكليل نصف دائري، وتلبس فوق فستانها عباءةً موشاةً بالزخارف أيضًا، وتلفّ رقبتها بوشاح محلّى بالزهور. وقد جعلني مظهرها أكوّن انطباعًا قويًّا أنها ملكة. أما الفتى فكان وسيمًا، ذا أنف يميل إلى الدقة، ويحزم شعره، الذي يغطي أذنيه، بحزام أبيض مُحاك.

نهضت على احتراس بالغ، متحاشيًا النظر إلى الجمع، ومترددًا بين أن أمضي، على هوني، إلى حال سبيلي كأني ما رأيتَ شيئًا، وبين أن أهرب على جناح السرعة. لم تكن المسافة، التي تفصلني عنهم، تسمح لي بالنجاة إذا ما لذت بالفرار، فانعطفت إلى اليمين، وسرت بقدر ما أستطيع من بطء، وفي اندفاع غير عقلاني أطلقت العنان لساقيّ.

بعد ثوانٍ قلائل ترامى إلى سمعي من الخلف صوت عظيم للبوق يتردد صداه طويلًا بطيئًا في الفضاء، فأدركت من فوري أنهم يأمرونني بالتوقف. لم أتمكّن من مواصلة الجري، أحسست بأن ساقيّ تخوران، وقدميَ تتداعيان كما لو أني سقطت من علٍّ، وقلبي ينتفض فزعًا. توقفت وأدرت على عقبي؛ رافعًا ذراعيّ إلى الأعلى مثل أسير، وكأن عشرات البنادق مسددة إليّ.

أومأ لي الزعيم بأن أتقدم، فازداد الخفقان في صدري. «يالها من ساعة شؤم، أي شغف أحمق أخرجني اليوم إلى شاطئ البحر؟» قلت في دخيلتي، ورجعت القهقرى لاهثًا حتى توقفت على مبعدة نحو عشرة أمتار عنه. لكنه أومأ لي ثانيةً بأن أقترب أكثر، فطاوعته صاغرًا، ومثلت أمامه قلقًا هيّابًا.

كانت يداه تعبثان بشيء لم أستطع تحديده، وعيناه تضطرمان بشرر الغضب كأنه محارب عائد توًّا من معركة خاسرة. تشتّت نظري بين هيأته المهيبة والفهد والبوق المحزّز والنساء الحسناوات اللائي يخطف جمالهن الأبصار، وراودني إحساس بأنني رأيت أصغرهن، ذات المبسِم الشهي والعينين الرماديتين المائلتين إلى الزرقة، والبشرة البيضاء المزيّنة بنمشات صغيرة، في مكان ما، فهفا قلبي إليها.

صوّب الزعيم نظره الثاقب كالصقر عليّ، وأرغى وأزبد، ثم سألني بصوت أجش:

ـ علامَ فررت حين رأيتنا؟ هل أنت من أهل أرابخا؟

أجبته بكلمات تعثّرت على شفتيّ:

ـ إي، بلى.. أنا من أهلها.. كنت في ريب من أمركم.. أقصد توجّست.

رفع حاجبيه من فرط الدهشة وقال:

ـ هل يبدو علينا أننا نعضّ؟

نفيت بحركة من رأسي، وابتلعت ريقي وقلت:

ـ ارتعبت من الفهد، خشيت أن ينقضّ عليّ.

ألقى بالشيء الذي كان يعبث به على الفتى الجالس جنبه، لكنه سقط على الأرض، وللحظة استطعت أن أميّزه، كان مجموعة أحجار كريمة يجمعها خيط كالمسبحة، أسرع الفتى إلى التقاطه. أشار الزعيم بيده إلى أحد رجاله، فاستخرج الرجل قارورةً جلديةً من أحد الصناديق، وسكب منها سائلًا في كأس خزفي وقدّمه له. رفع الزعيم رأسه وأفرغ الكأس في جوفه مثل مَن يصبّ ماءً في قاع حفرة، وقال:

ـ لا تخف، إنه مروَّض، يستهدف الفرائس الصغيرة فقط ولا يهاجم البشر.

قلت:

ـ وهيئاتكم الغريبة أيضًا.

خبط الهواء بقبضته أمام وجهه وسأل:

ـ أين وجه الغرابة فيها؟

قلت:

ـ إنها تعطي انطباعًا بأنكم مفزِعون.. أعني أنكم غرباء، لستم من عصرنا.

قال:

ـ هل أفهم من ذلك أننا سنُفزع أهل المدينة؟

ـ أتريدون دخولها بثيابكم هذه؟

أصدر الجمع أصواتًا مضطربةً وغامضةً، وسألني الزعيم متبرمًا:

ـ ما بها ثيابنا؟

صمتّ قليلًا، ثم قلت مترددًا:

ـ سيخالكم الناس جماعةً إرهابيةً.

نتأت حدقتا عينيه، وسألني مستغربًا:

ـ ما معنى جماعة إرهابية؟

ـ مسلحون في غاية الخطورة، يقتلون وينهبون ويغتصبون، احتلوا مدنًا وبلداتٍ وقرى كثيرةً في بلادنا وفي بلاد الشام، وأذلّوا سكانها، وسبوا نساءها، واستولوا على مواردها.

ـ اللعنة، هل لهم موطئ قدم في أرابخا؟

أجبته متأسيًّا:

ـ في بعض البلدات والقرى التابعة لها، ويُقال إن عناصر منهم مختبئون يسمونهم خلايا نائمة.

ـ أتشبه ثيابهم ثيابنا؟

ـ إلى حد ما. إنهم يرتدون زيًّا موحدًا يُعرف بالزي القندهاري.

ـ قندهاري؟ أعرف أرضًا اسمها گندهارة شرق مملكة علامتو.

ـ أكيد هي ذاتها في دولة أفغانستان اليوم.

ـ أفغانستان! ربما هو الاسم الذي تطلقونه اليوم على إحدى ممالك الميديين التي كانت تقع فيها گندهارة.

ـ تخمينك في محله يا سيدي.

ـ بعض أعواني حاول إقناعي يومًا ما بأن أبسط سيطرتي على تلك المملكة وما جاورها من ممالك، لكنني ما تحمّست للأمر. هل يسيطر هؤلاء الإرهابيون على قندهار أيضًا؟

ـ لا، كانت قبل سنوات عاصمة إمارة حركة متطرفة اسمها طالبان سيطرت على معظم مناطق أفغانستان، وهي إرهابية أيضًا.

ـ ما أكثر المتطرفين والإرهابيين في عالمكم!

ـ صدقت يا سيدي، إنهم أكثر من الهمّ على القلب، وللمشكلة وجه آخر..

ـ أي وجه؟

ـ خصوم هذه الجماعة أيضًا توجد بينهم جماعات تسلك مسلكها في قتل الأبرياء أو تشريدهم ونهب ممتلكاتهم.

شبك الزعيم رؤوس أصابعه بعضها ببعض وقال:

ـ هل يتعيّن علينا إذن ارتداء ثياب مثل ثيابك ما دمتَ توجس خيفةً من أمر ثيابنا؟

قلت:

ـ طبعاً، من الأفضل أن ترتدوا ثيابًا مثل ثياب أهل المدينة.

التفت الزعيم إلى زوجته وهمس في أذنها، فهزت رأسها، ثم نظر إليّ، وعلى محياه ابتسامة عريضة، وأشار تجاهي بإبهامه قائلًا:

ـ ستكون أنت عونًا لنا.

ـ أنا؟ كيف أعينكم؟

سألته، فرد واثقًا:

ـ تجلب لأحد رجالي ثيابًا مثل ثيابك وأنا أكافئك.

أشرت إلى حاشيته:

ـ والآخرون؟

قال:

ـ سيرافقك أحد جنودي ليبتاع ما يكفينا جميعًا. هل تقايضون الثياب بالذهب؟

قلت:

ـ لا، نحن نتعامل بالنقود الورقية، لكن يمكنه أن يستبدل الذهب بالنقود، أعني يبيعه لأحد الصاغة.

قال:

ـ الأمر سهل إذًا، ستكون أنت دليلًا له.

سألت:

ـ وكيف سيحمل ما يكفيكم جميعًا من الثياب والأحذية؟

ـ ألا توجد وسائط للنقل في المدينة؟

ـ بلى توجد.

ـ أهي عربات تجرها الخيل؟

ـ لا يا سيدي، إنها عجلات تعمل بمحركات ويقودها سائقون.

وأشرت إلى موقف السيارات، وأضفت:

ـ مثل تلك المركونة هناك أو التي تسير في الشارع.

ـ أرأيت؟ إن الأمر سهل كما قلت.

ـ لكن يجب ألاّ يراكم سائق السيارة بثيابكم وسيوفكم هذه.

رفع يده وقال:

ـ لماذا سائق آخر، ألا تمتلك أنت سيارةً؟

ـ بلى، لكنها صغيرة لا تستوعب الحمل، ويجب أن نكتري واحدةً تسمى شاحنةً.

ـ ها قد وجدتَ الحل، أما بشأننا فلا تقلق، سنختفي داخل المركب أو هنا.

وأشار إلى المغارة، وقال:

ـ لئلا يرانا السائق.

ـ وإذا سألني ماذا تفعل بالبضاعة في مكان كهذا؟

ـ لا تعقّد الأمر، قل له إنك تريد نقلها بذلك المركب الراسي على المرفأ إلى مكان آخر.

بدا لي الزعيم حاذقًا، ذكيًّا، فسألته:

ـ كم من الوقت تنوون البقاء في المدينة؟

ـ ريثما تنتهي مهمتنا.

ـ هل أستطيع أن أعرف اسمك؟

ـ أسمعتَ باسم آشور ناصر بال الثاني؟

قلت بثقة:

ـ طبعًا، قرأت عنه في كتب التاريخ، إنه ملك آشوري ادّعى بأنه باني مدينتنا.

تهلل وجه الزعيم وقال:

ـ أنا هو.

انتابني الذُهول:

ـ أنت الملك آشور ناصر بال الثاني؟!

قال:

ـ بلحمه ودمه.

ـ لكنك، عفوًا يا سيدي، لا تضع تاجًا على رأسك!

ـ سقط في البحر.

ـ يا للهول!

ـ كنت على شفير المركب حين هبّت العاصفة فسقط من رأسي. لكن دعك من هذا.

أومأ إلى النساء، واستطرد:

ـ هذه زوجتي الملكة موليشومو، وهؤلاء بناتي: أميديا وإيشارا وشميرام.

ثم ربت على كتف الفتى، الذي يعطي شبهًا بأمه، وتبدو عيناه يقظتين مبتهجتين:

ـ وهذا ابني وولي عهدي الأمير شلمانو. لديه خصال عظيمة يندر أن تجدها في مَن هم في سنه، يسلك مسلك الحكمة والقوة، وينبذ الأهواء التي لا يسفر عنها إلاّ ضياع هيبة أبناء الملوك.

قلت:

ـ فليحفظه الربّ.

صمتُّ لحظةً، ثم اضفت:

ـ لكنني قرأت يا سيدي أن أرابخا تعود إلى عصر أور السومرية.

احمرّ وجه الملك وانتفخت أوداجه، وأشار كرّةً أخرى إلى أحد رجاله، فقدّم له كأسًا ثانيةً، شربها دفعةً واحدةً، وردّ منفعلًا بصوت خرج من معدة ممتلئة، وهو يمس أنفه:

ـ تبًّا، أي هزأة كتب ذلك؟

قلت متوجّسًا:

ـ كل الاحترام لك جلالة الملك، إنه والله رجل حكيم وليس هزأةً.

استشاط غضبًا وقال:

ـ أتصدّق رجلًا من زمانكم وتكذبني أيها الصعلوك؟

انعقد لساني لحظةً ثم تمتمت:

ـ على هونك يا سيدي لا تغضب.

أحنى جسمه وسألني:

ـ إصغِ أيها الشاب، كم عمرك؟

ـ ست وعشرون عامًا.

ـ ومهنتك؟

ـ أدرُس علم الآثار، ولديّ محاولات في كتابة الرواية.

ـ ماذا تدرُس في هذا العلم؟

ـ أدرُس ذخائر وكنوز حضاراتنا القديمة من عمائر ومنحوتات ورُقم ولُقى وما لا يخطر في حُسبان.

اعتدل في جلسته وقال:

ـ هذا أمر جيد، وماذا عن الثانية التي أسميتها رواية؟ هل هي علم أيضًا؟

ـ لا، إنها نوع من أنواع الأدب، سرد طويل يحكي أحداثًا، ويصف شخصيات خياليةً أو واقعيةً، ويشبه الأدب الملحمي في العصور القديمة.

تلمس آشور بشرته بلمسات من بنان أصابعه، وقال:

ـ مثل قصة جلجامش؟

ـ أحسنت يا سيدي. هل قرأت النسخة التي دوّنها سين- ليقي- أونني باللغة الأكدية في أوروك؟

ـ لا.

قال على نحوٍ قاطع، وأردف:

ـ قرأها على سمعي أحد كتبتنا في ألواح مكتوبة بلغتنا الآشورية.

قلت بنبرة استحسان:

ـ تمامًا يا سيدي.

انطلقت أسارير الملك، وبدا أن فكرةً لاحت له، فقال بعد أن أدار رأسه نصف دورة إلى رجاله:

ـ ما دمت تهوى تدوين الروايات فلعلك تدوّن ما قمتُ به من أفعال عظيمة أحنى الجبابرة جباههم لها. سأقصصها عليك بالتفصيل، بل سأبتعثها لك في صور حية تجعلك مشدوهًا من هولها، وعليك أن تضيف لها الكثير من توابل التشويق والخيال والشعر.

ـ في خدمتك يا سيدي، هذا شرف كبير لي.

ـ إصغِ، أنا الذي وسّعت أرابخا ونظّمتها، وكانت قبل ذلك بلدةً صغيرةً ومركزًا لعبادة إله الرعد والبرق أدد، وحين تمرد عليّ الحاكم الميدي اَرياق عزلته وعينت بدلاً منه حاكمًا عليها اسمه كرمي، وأمرته ببناء قلعة فيها،

وعندما أتمّ بناءها جاء بألف من أتباعه وأسكنهم فيها، فتوسعت عمارتها وعظمت أهميتها، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت حصنًا دفاعيًا أمام هجمات الأعداء الطامعين في الاستيلاء على المدينة.

حين أنهى كلامه شعرت بأنه كان يقذف الهواء بألفاظه، فخطر لي أن أقول له إن بيوت القلعة أُزيلت كلها بعد أن أُرغم ساكنوها على مغادرتها، ولم يبقَ فيها سوى بعض الآثار القديمة، إلاّ أنني خشيت أن أصدمه، فتمالكت نفسي وسألته:

ـ هل كانت هذه المغارة موجودة حين بُنيت القلعة؟

ـ نعم، كانت مأوى تعصم حرّاس المرفأ من الريح والمطر.

فكّرت في إطلاعه على الحكايتين الشائعتين عنها، لكني لم أجد الفكرة مناسبةً، ومضيت في الحديث عن المدينة:

ـ اعذرني جلالة الملك، ثمة من يقول أيضًا إن الملك آشور بانيبال، أو سردنابال الملقب بملك العالم هو باني القلعة.

تشنّج وجه الملك، وصاح مزمجرًا:

ـ هراء.

قلت بصوت خافت:

ـ إنه ابن الملك آسرحدون وحفيد الملك سنحاريب.

كان لردّي فعل القنبلة، فانتفض في سورة غضب متسائلًا:

ـ من أين تأتي بهذه المزاعم أيها الصعلوك؟

أجهدت ذهني لاستخلص جوابًا لا يزعجه، وقلت:

ـ أرجوك يا سيدي لا تغضب، هكذا علّمنا التاريخ.

لكنه ردّ ساخطًا:

ـ ليذهب التاريخ الذي علّمكم هذا الهرف إلى الجحيم.

أوقفني الجُبن عن المضي في محاججته فتمتمت:

ـ ليذهب يا سيدي، ما شأني أنا.

رفع سبابته وقال محذّرًا:

ـ افتح أذنيك جيدًا، عليك أن تمحو من رأسك كل هذا الهذيان، أنا الذي شيّدت أرابخا، واليوم جئت لأتفقد أحوالها، بلغتني معلومات تقول إنها تفتقد إلى الأمان، وإن جماعات عديدةً تتنازع للاستئثار بها.

ـ صحيح يا سيدي، كل جماعة تزعم أن اللبن الذي في ضرع المدينة ملك لها فيما هي تجترّ العاقول والشوك.

تبدّت نظرة زاخرة بالأسى على وجهه، وقال بصوت يتراوح بين الفوران والخفوت:

ـ تبًّا لهم جميعًا. ليعنّي الإله على إعادة الأمان والوحدة إليها. كانت سابقًا مرتعًا لأناس من شتى الأعراق والمنابت، يتعايشون في إلفة رائعة، يتقاسمون الحياة حلوها ومرّها، أما الآن فيبدو أن شيئًا ما تغلغل في بواطن أعراقها وصدّعها.

ثم أمر أحد رجاله بأن يفتح الصندوق الصغير الذي يحمله، وحين فتحه الرجل تناول منه قطعةً ذهبيةً وقال:

ـ أترى قطعة الذهب هذه؟

ـ لا شك في أنها ثمينة يا سيدي.

ـ سأمنحك عددًا منها بعد عودتك.

ألقيت نظرةً خاطفةً إلى ابنته الصغرى وقلت:

ـ أطمح إلى هدية أثمن.

ـ أية هدية؟

أشرت بإصبعي إلى ابنته الصغرى، ففتح عينيه على وسعهما وقال:

ـ الأميرة شميرام؟

قلت:

ـ يا له من اسم جميل، لقد مال قلبي إليها وأحلم أن أتزوجها.

سرت دمدمة بين الجمع، وقدحت عينا الملك آشور شررًا كما لو أني حطّمت كبرياءه:

ـ ماذا قلت أيها الصعلوك؟

ـ لِمَ لا يا صاحب الجلالة، هل يعوزني شيء؟ أنا شاب آشوري أعزب، وسأحوز قريبًا على شهادة الماجستير وأصبح عالم آثار.

ـ أجل، يعوزك أنك لا تنتمي إلى طبقة راقية، بل إلى عامة الناس، وأنا ملك ابن ملك. ألم تقرأ أنني رجل عظيم أخضعتُ كركميش وأرض توم واستوليت على مدنها الحصينة، وبسطت نفوذي على كيروري وجعلت سكانها يؤدون لي الجزية من الخيل والذهب والفضة والقصدير والنحاس،

وضممت أرض كيرهي إلى مملكتي، وثبّت سيادتي على زامو وتشخان وكينابوو بيت زماني، وأخمدت التمرد في لاق وخنداق وسوخو وقضيت عليها، وأقمت لوحةً تذكاريةً عند نهر الكلب؟

تذكرت أنني قرأت ذات يوم شيئًا من ذلك، فأجبته:

ـ بلى.

ردّ متسائلًا بازدراء:

ـ كيف تجرؤ إذًا على طلب يد ابنتي؟

ـ لأنها راقت لي وأحببتها، سبق أن رأيتها ذات مرة.

ارتسمت على وجه الصبية ابتسامة مفعمة بالخجل والحيرة، صاحبتها نظرة هائمة في الفراغ، في حين قطب الملك جبينه، واتخذ وجهه تعبيرًا جهمًا مغلقًا، وقال كمن أصابه فالج:

ـ ما هذا القول الأخرق؟ هل أنت عاقل أم مجنون؟

ـ عاقل طبعًا يا جلالة الملك.

ـ إن كنت عاقلًا كيف تقول إنك رأيتها ذات مرة؟

ـ لا أدري، ربما حدث ذلك في الحلم.

بشّ وجهه قليلًا، وقال:

ـ حسنًا، ربما حلمتَ بها، لكن هل يزوّج الملوك بناتهم من أبناء عامة الناس في زمنكم؟ ألا يراعون المقامات؟

ـ نعم يزوّجون إذا توافقت القلوب.

ـ يا لك من جَسور! تتحدث وكأنك تملك قلب ابنتي. أنت تحيرني يا... ما اسمك؟

ـ نينوس.

ـ نينوس؟! هذا ليس اسمًا آشوريًّا.

ـ أجل يا سيدي، المؤرخون اختلفوا في أصله، بعضم يقول إنه الاسم الذي أطلقه اليونانيون على نينوى، وبعضهم الآخر يقول إنه الاسم الذي أطلقوه على بانيها الملك توكولتي نينورتا الأول.

ـ إنه أحد أجدادي، أخضع كل أمم الشرق ما عدا الهنود والبخاترة، وكان قادرًا على تجييش مليوني جندي.

ـ إذن أنا من أحفادكم يا سيدي.

قهقه الملك، وقال:

ـ غلبتني في هذا، يبدو أنك شاب مستنير. والآن اهرع وانجز المهمة التي كلفتك بها، وحينما تعود سأنظر في موضوع زواجك من احدى بناتي.

ـ شميرام بالذات يا سيدي، قلبي تعلّق بها.

ـ سأنظر في الموضوع.

ـ تنظر أم تعدني بالموافقة؟

ـ لا تكن لحوحًا، امضِ لإنجاز المهمة.

ـ سأفعل يا جلالة الملك المعظّم.

لوّحت بيدي مودعًا للانصراف، بيد أنني تفكّرت فجأةً في الفهد، فقلت:

ـ نسيت أن أخبرك بشأن ذلك الحيوان.

ـ ما به؟

ـ سيروّع أهل المدينة إذا رافقكم.

ـ لا تقلق، سيمكث مع مروّضه في المركب.

أخرجت هاتفي الخلوي لألتقط صورةً للجمع لكني وجدت بطاريته خاليةً من الشحن تمامًا. هرعت إلى سيارتي، سالكًا مساراً آخر أقل عثرات، ورأسي يمور بتساؤلات شتى: أأصدّق أنه الملك آشور أم أنه أفّاق ينتحل شخصيته، أم زعيم نفر من القراصنة؟ إنْ كان هو بلحمه ودمه كما يقول فلماذا لم يرشده أحد آلهته، أو أحد حكماء مملكته في الأقل، إلى أفضل السبل لدخول المدينة؟... لا، لا، إن هيبته تشير إلى أنه ملك بالفعل، لكن هل يُعقل أنه جاء فقط بغية تفقّد أحوال المدينة؟ أأتناساه وأفلت من العبء المرهق الذي حمّلني إياه أم أحقق مراده؟ إذا تناسيتُ أضعتُ فرصة الزواج من ابنته الصبية الساحرة الجمال، وخسرتُ مكافأته الثمينة التي سيحوزها، ببساطة، شخص آخر، ربما رجل مستطرق. أجل، من الحكمة أن أكون عونًا للملك آشور كما أراد، وأقايض العبء بالصبية والمكافأة. أظنه اقتنع بأنني نبتة طالعة من بذرة آشورية وإلاّ لما قال سأنظر في موضوع زواجك من ابنتي. لكن أكان جادًّا أم مازحًا؟ الله ما أجملها.. شميرام، شميرام.. إنه أحد أسماء محبوبة الحمام الملكة القوية شمورامات ذات الحسن والذكاء الخارقين. سأكون محظوظًا إن تزوجتها ورافقت أهلها إلى عاصمتهم كلحو الجميلة. سأستمتع برؤية جدارية نمرود، والمشغولات العاجية

والمسلات والتماثيل الضخمة التي قرأت عنها، وأزور معبد نبو لأطّلع على الرُقم المسمارية التي نُقشت عليها نصوص عهود الولاء المقدَّمة من الحكام التابعين للدولة الآشورية.

9

حين بلغت البيت ضغطت على الجرس عدة مرات فلم يفتحه أحد. بعد برهة فتح جاري رشيد، الطاعن في الشيخوخة، الآيل للزوال والمصاب بالزهايمر، نافذة بيته، وتفحّصني بعينين زائغتين لا تقدران على تركيز النظر، وسألني، بصوت مطحون، وفكه الأسفل يرتعش، السؤال الذي اعتاد أن يسألنيه كلما رآني:

ـ هل رأيت زوجتي يا نيموس؟

كانت زوجته قد توفيت منذ سنوات طويلة، فأجبته مازحًا، كما في كل مرة:

ـ أعتقد أنها في السوق وستعود بعد قليل، واسمي نينوس وليس نيموس.

خطوت خطوتين فسمعته ينادي:

ـ انتظر.

عدت إليه، مكرهًا، ووضعت يدي على النافذة:

ـ هل تريد أن تقول شيئًا آخر؟

انتزع سدارته السوداء [1] من رأسه، وفتح فمه فبانت لثته عاريةً من الأسنان:

ـ لا يروق لي أن تذهب زوجتي وحدها إلى السوق.

ـ لماذا؟

ـ أخاف عليها من كائنات غير مرئية لا تتوقف أبدًا عن مضايقة النساء.

مازحته ثانيةً:

ـ كان هذا يحدث أيام كانت زوجتك شابةً، أما الآن فلا خوف عليها.

يعيش جارنا هذا مع حفيدته العانس نازك، الممرضة في المستشفى الجمهوري. كان جنديًا في جيش هتلر أيام الحرب العالمية الثانية. وصل إلى ألمانيا رفقة أبيه وهو في سن الثالثة، وحصل على جنسيتها. وحين قامت الحرب كان في الثامنة عشرة فساقوه إلى الجيش، وزجّوه مع قوات ضخمة في عملية «باربا روسا» التي شنتها قوات المحور لغزو الاتحاد السوفييتي، لكنه جُرح في بداية المعارك، وتمكّن من الفرار إلى تركيا، متنكرًا بهيئة غجري، ومنها دخل إلى العراق. سألتُه ذات مرة لماذا أطلق هتلر على تلك العملية اسم باربروسا؟ قال «الفوهرر ابن قحبة، كان يتوهم أن ابن القحبة باربروسا سيستيقظ من سباته وينقذ ألمانيا حينما تحتاجه!».

تقلّب رشيد بين مهن مختلفة، كانت آخر واحدة «تيتي» (قاطع تذاكر في القطار)، خرج منها متقاعدًا، وماتت زوجته قبل اثنين وعشرين عامًا،

(1) لباس الرأس المعروف بـ«الفيصلية» نسبةً إلى الملك فيصل الأول الذي صمّمها واعتمرها أول مرة في العراق.

ولم يكن أنجب منها سوى بنتًا واحدةً هي أم حفيدته المسكينة نازك، ولما ماتت البنت أيضًا في سن الأربعين لم يعد يرعاه غير هذه الحفيدة. أما أحفاده الثلاثة البنين فقد قضوا نحبهم في ظروف مختلفة، قُتل واحد في بداية الاحتلال بصاروخ أميركي قصف وحدته العسكرية، وغرق ثانٍ في البحر أثناء محاولة تهريبه إلى أوروبا مع مجموعة لاجئين غير شرعيين، وفُقد الثالث أثناء عاصفة ثلجية ضربت مخيمًا مؤقتًا في غابة بالبوسنة بعد نجاحه في الهروب من تركيا إلى تلك الدولة. وقيل إنه ربما قُتل بلغم أرضي من مخلفات الحروب التي عاشتها يوغوسلافيا، لكن جثته لم يُعثر عليها.

بقيت نازك عزباء من أجل جَدّها هذا، تجتر معاناة فقد الأم والأشقاء، ودخلت دورةً في التمريض وكرّست نفسها له. تذهب إلى عملها في السابعة صباحًا وتعود في الرابعة عصرًا، وتستقبل في الأماسي بعض النساء المريضات اللواتي يحتجن إلى غرز إبر. عانس طيبة، ذات مروءة وأخلاق حميدة، على عكس ما يُشاع عن الممرضات. تتزاور هي وأسين من آنٍ لآخر، وفي بداية كل شتاء تقصدها أمي لتغرزها إبرةً مضادةً للإنفلونزا، وحين تعود تقول بثقة متناهية «وحق العذرا إن نازك أفضل من أطباء زمننا الأغبر».

أراد رشيد أن يواصل حديثه معي لكن جارتتنا أم سيمون، التي دخلت توًّا عقدها السابع، فرجت باب بيتها، وأخرجت رأسها منه ولوّحت لي. اتجهت إليها، ظنًّا مني أنها تريد أن تسألني عن زوجها أيضًا، إلاّ أنها أخبرتني بأن أمي تركت لي المفتاح عندها وذهبت إلى المستشفى الجمهوري. صعقني النبأ:

ـ ماذا حدث لها؟

قالت:

ـ اطمئن، لم تُصب بأذى، ذهبت لأمر يتعلق بأبيك؟

ـ أبي؟

ـ اتصل بها من المستشفى قبل ما يزيد عن ساعة. صدمته سيارة في شارع أطلس وسببت له بعض الرضوض.

ـ اللعنة، أفي مثل هذا الوقت؟

ـ لا تلعن أحدًا يا ولدي، القديس يوحنا يوصينا بأن نبارك حتى على الذين يضطهدوننا لا أن نلعنهم.

أخذت المفتاح من المرأة وشكرتها ببرود. كان ذهني مشتتًا بين خيارين: واجبي حيال أبي وحرصي على تنفيذ المهمة التي جئت من أجلها. في أثناء ذلك لمحت أسين تطلّ من شرفة بيتها مخطوفة الوجه، فخمّنت أنّ أم سيمون أخطرتها بما حدث لأبي.

أوصلت هاتفي بشاحن السيارة، وتكلمت مع أمي على الفور، فإذا بها تنهال عليّ باللوم والتقريع، بيد أني لم أجد بدًّا من مسايرتها، ابتلعت كلامها وسألتها في هدوء عن إصابة أبي، ردّت عليّ بأنها غير مقلقة حسب رأي الطبيب، وأضافت أن الربّ نجّاه بفضل إيمانه به مخلّصًا.

بلغت الجناح الذي يرقد فيه أبي خلال أقل من نصف ساعة، فوجدته يغط في غفوة عميقة، وعلى حافة سريره تجلس أمي ساهمةً. خزرتني بنظرة صارمة، وأومأت لي بألاّ أصدر صوتًا، ثم نهضت ودفعتني أمامها إلى الخارج.

سألتني، ونحن نجتاز البوابة إلى حديقة المستشفى الفسيحة، والغضب يملأ وجهها:

ـ لماذا كان هاتفك مغلقًا؟ اتصلت بك عشر مرات، وقبلي اتصل بك أبوك أكثر من مرة!

وأضافت أشياء أخرى، كثيرًا من التقريع والتوبيخ، لكني آثرت الصمت، تركتها تفرغ جعبتها، وحين اكتفت أقسمتُ لها كذا قسم بأن الهاتف كان فاقد الشحن، واعتذرت كما لم أعتذر لأحد في حياتي. عندئذ خفّ غضبها قليلًا، واتجهت إلى مصطبة حجرية وجلست عليها، وأخذت تعاين حركة الناس والسيارات من خلل سياج الحديقة، المصنوع من قضبان معدنية تتيح المسافات بينها للناظر رؤية ما يجري في الشارع.

لحقت بها وجلست لصقها وقبّلتها من رأسها، فالتفت إليّ وطلبت أن أشعل لها سيجارةً. لم تكن مدخنةً بالمعنى المتعارف عليه، لكن عندما يحملها أحد على الغيظ تفرغ شحنة غيظها بسيجارة.

سألتها عما إذا أخطرت سلفانا بالحادث الذي تعرض له أبي، هزّت رأسها نافيةً، ثم قالت بعد هنيهة «لو أعلمتها لصُدمت».

تناهى إلى سمعنا من بعيد دوي انفجارات متتالية، أعقبته على الفور أصوات إطلاق رصاص، فأجفلت أمي، كأن شيئًا ما تهاوى في داخلها، وصلّت بإشارة بالصليب «باسم الآب والابن والروح القدس». استدرت إليها وأمسكت بكتفها، وأنهضتها وأنا أتمتم «لا تفزعي، إنها عملية إرهابية كالعادة». وأسرعنا في مبارحة الحديقة إلى الداخل، وما إن ارتقينا الدرجات حتى أخذت أمي نفسًا وناجت الربّ:

ـ إنّا أسلمنا أرواحنا إلى يديك يا يسوع الحبيب، ألطِف بنا يا أبا المراحم، أخشى ألاّ ينقضي اليوم بسلام.

لحظت في ضوء المصباح شحوبًا على وجهها، فقلت لها مهدّئًا من روعها:

ـ لا ترتعدي، ألِفنا سماع دوي الانفجارات وأزيز الرصاص.

تنهدّت وقالت:

ـ لولا دراستك لكنا الآن في أميركا أو أستراليا حالنا حال الآخرين.

ـ هذا ما يريده هؤلاء الإرهابيون، إرغامنا على الهجرة واجتثاثنا من جذورنا.

ـ صرت أرتاب من الحادث الذي تعرّض له أبوك، لعلّه كان مدبّرًا.

ـ لا أعتقد، لو أن جهةً إرهابيةً استهدفته لاغتالته بالسلاح بدلًا من حادث دهس نتيجته غير مضمونة، ثم أنّ أبي رجل مسالم فلماذا يستهدفونه؟

ـ ابني أنت تناقض نفسك، ألم تقل إنهم يريدون إرغامنا على الهجرة؟

ـ بلى قلت، لكنني قصدت أنهم يقومون بما هو أدهى وأمر مثل تفجير الكنائس والأديرة.

رنّ هاتف أمي داخل حقيبتها، فالتقطته بسرعة وردّت بصوت واهن «ألو». كانت أسين على الجانب الآخر تسأل عن أبي، قالت لها: «اطمئني حبيبتي، رضوض بسيطة وإن شاء الرب لن يبيت الليلة في المستشفى». ضغطتُ على مكبر الصوت، من باب الفضول، فإذا بي أسمع أسين تقول:

ـ تمنيت أن آتي مع نينوس، لكنك تعرفين، اعذريني خالتي.

ـ أعرف حبيبتي. ستأتين إلى البيت مع الجيران وتطمئنين على عمّك.

ـ سآتي طبعًا. أبلغيه سلامي ودعائي له بالشفاء العاجل.

حين ناهزت الساعة الثامنة ليلًا سمح الطبيب لأبي بالخروج من المستشفى على مسؤوليتنا. في الحق كان أبي هو المبادر إلى ذلك، فقد بدا مسترسل الطمأنينة، وأكد للطبيب قائلًا «وضعي الصحي تحسّن، وليس ثمة ما يدعو إلى القلق، وسأكتفي بالحبوب المسكنة، ناهيك عن كوني لا أطيق المستشفيات أصلًا لأنها تقيّد حركتي، وتبعث الملل في نفسي».

إذّاك لمحت، من زجاج النافذة الواقعة خلف سرير أبي، وميض سيارات إسعاف تلج المستشفى، قفزت من مكاني وفتحت النافذة على سعتها وأطللت برأسي إلى الخارج، لكن أبي سحبني من ذراعي، ورفع جذعه وأغلق النافذة، وسدّد إليّ نظرةً شزراء كأني ارتكبت حماقةً. بعد لحظات حدث هرج ومرج في ممرات المستشفى، وسمعت أصوات ممرضين يتراكضون، فقدّرت أن أناسًا كثرًا أصيبوا في العملية الإرهابية.

وقّعت على نموذج الخروج من المستشفى، وفي داخلي كانت تتسع رغبة شديدة في العودة إلى المرفأ، لكنّ مكالمةً هاتفيةً من عمران، لحظة وصولنا إلى البيت، نسفت كلّ آمالي. أخطرني بأن العاصفة التي ضربت شاطئ البحر عصر اليوم أقلقته كثيرًا، فاتصل بي ليطمئن عليّ، لكن هاتفي كان مغلقًا فلحق بي إلى المرفأ ولم يجدني.

سألته بصوت يضمر لهفةً:

ـ متى كنت هناك بالضبط؟

ـ بعد انتهاء العاصفة بساعتين على وجه التقريب.

ـ لِمَ لم تتصل ثانيةً؟

ـ خرجت على عجل ونسيت هاتفي في البيت.

ـ هل وجدت أحدًا على رصيف المرفأ؟

ـ رأيت عددًا من صيادي السمك في حال يُرثى لها.

ـ أكان هناك صيادون؟ يا له من أمر عجيب!

ـ لِمَ العجب؟ نعم كان يوجد صيادون، وقد أخطرني واحد منهم أن ثلاثة من زملائه فُقدوا في البحر بسبب العاصفة، ويخشى أن يكونوا قد لقوا حتفهم.

ـ ماذا تقول؟ أنت تجنّني!

ـ أجنّنك؟ أين وجه الغرابة في ذلك؟ أما كنت هناك حين هبّت الريح العاتية؟

ـ بلى كنت.

ـ أما رأيت كيف اصطخب موج البحر؟

ـ بلى، وقد احتميت بالمغارة، ومكثت فيها ساعةً ونصف الساعة تقريبًا.

ـ عجيب أمرك! ما الذي جعلك تقضي فيها كل هذه المدة؟ هل غفوت؟

ـ لا، كنت أراقب البحر. لكن قل لي هل لمحت مركبًا شراعيًّا راسيًا في المرفأ؟

ـ ما لفت انتباهي شيء من ذلك. ماذا يعنيك من أمره؟

ـ في ما بعد سأحكي لك كلّ شيء.

كنت عازمًا على العودة إلى البحر، غير أن مكالمة عمران أحبطتني، فأجّلت الأمر إلى صباح الغد، واضطجعت على سريري مكروب النفس، ولبثت أتقلب طويلًا، نهبًا لتفكير ممض، وعبثًا جهدت أن أستجلب النعاس، فقد ظلت عيناي يقظتين، يستعصي عليهما النوم، ولم أغفُ إلاّ حين أضحى تنفس الفجر وشيكًا، بعد أن شربت كأسي فودكا.

دهمتني وجه الصبح أحلام مضطربة، لكن الحلم الوحيد الذي تذكّرته بالتفصيل، ربما لأنه كان الأخير، حلم اختطاف شميرام أثناء عُرسنا. كنا أنا وإياها رفقة أمي وأختي سلفانا داخل استوديو للتصوير الفوتوغرافي، تغمرنا فرحة الزفاف الذي استغرقنا وقتًا طويلًا في الإعداد له. كانت عيناها تحتفظان بتلك المسحة من البراءة التي لا تمتلكها فتاة غيرها، أما وجهها فكان ساطعًا كالبدر، يفيض حيويةً تحت حزمة ناعمة من الضوء الذي تفنن المصور في توجيهه، تاركًا مساحات من العتمة هنا وهناك.

لم نتبادل سوى القليل من الكلمات، كان المصور وحده يتكلم بصوت رخيم قاطع، محدّدًا لنا أوضاعًا رومانسيةً مختلفةً: تقابلا وجهًا لوجه وليقبّل كل واحد منكما كف الآخر، اقعدا على هذه الأرجوحة المزينة بالورود وابتسما، ضع يديك على كتفيها واطبع قبلةً على جبينها، اتخذي وضعية راقصة فلامنكو واعتمر أنت هذه القبعة الإسبانية واعزف على الجيتار، امسكي أنتِ بباقة الورد هذه وأحِط أنت خصرها بذراعك وأديرا

وجهيكما إلى الجدار، سأغير الخلفية بالفوتوشوب، «أتريدانها بحرًا أم بستانًا؟»، «نريدها بحرًا» قلت من فوري.

عندما انتهينا من التقاط الصور خرجنا من الأستوديو متشابكي الذراعين جذلين، وما كدنا نخطوا خطوتين حتى انقضّ علينا بضعة مسلحين ملثمين. أمسك بي ثلاثة منهم وكتّفوا يديّ وبطحوني على الأرض ووجهوا رشاشاتهم إلى رأسي، وحمل اثنان شميرام إلى سيارة همر رمادية ذات شكل شرس وعدائي، فانطلق سائقها على وجه السرعة، ولحق بها الآخرون على متن سيارة ثانية بعد أن أطلق أحدهم عدة رصاصات في الهواء.

كان الوقت قبيل الغروب، والنهار يوشك أن يلفظ أنفاسه، والمكان مقفرًا كأننا في جزيرة نائية خالية من البشر. تغلغت برودة في رئتي، وشعرت بأن روحي تكاد تغادرني، وراح عويل أمي وسلفانا يشق الفضاء حتى أنني كان بوسعي سماع صداه يتردد في الأفق البعيد.

رفعت سلفانا جسدي عن الأرض بمشقة، وجرجرتني إلى السيارة وقادتها بنفسها. لبثت فريسةً للقلق، أفكّر في النكبة التي حلّت بي، مستسلمًا لليأس لا أعرف إلى أين أذهب. طلبت أمي من سلفانا، والعبرة تخنقها، أن تسرع إلى أقرب مركز للشرطة.

قال الضابط، الذي بدا لي وجهه شبيهًا بوجه نافخ البوق المرافق للملك آشور:

ـ نحن لا نستطيع أن نفعل شيئًا.

ثم تثاءب ونهض من كرسيّه، كأنه يشير إلينا أن ننصرف، لكننا لبثنا في مكاننا.

قلت له:

ـ كيف لا تستطيعون أن تفعلوا شيئًا وهي عملية إرهابية؟

نظر إليّ نظرة المباغض المستهين، وقال:

ـ اذهب وبلّط البحر.

خرجنا من عنده، في أشد حالات الغيظ، واتجهنا إلى الشاطئ. بدت الطريق طويلةً وشائكةً كأننا لم نسلكها سابقًا. عند وصولنا فوجئنا بمشهد مهول يصيب المرء بقشعريرة، رأينا البحر يقلع ببطء، مخلفًا وراءه هاويةً لامتناهية الاتساع، يعتليه المركب الشراعي، ثابتًا لا يتأرجح، تسطع شميرام على متنه تحت أثير ضوئي مثل ملاك، وهي تمسك بإحدى يديها حبل شراعه، وتومئ بالثانية مودّعةً، فرفعت ذراعي وبادلتها إيماءة الوداع. وما هي إلاّ دقائق حتى تحرك البحر صوب الشرق، ثم غيّر اتجاهه إلى الغرب، ثم تراجع وأخذ يحلّق عاليًا في السماء. ناديته «ترفّق بي يا صديقي، عُد أدراجك وخذني لأصحب شميرام»، لكنه لم يسمعني، أخذ يبتعد شيئًا فشيئًا، تنهمر منه خيوط مائية مضيئة، كأنه في غربال، تشبه شهبًا طائشةً، ثم تقلص شيئًا فشيئًا حتى أصبح بحجم قوقعة واختفى بغتةً في الغمام. أما رمل الشاطئ فقد غدا لونه أسود كالقار، وخلال دقائق تشكّلت فوقه، على ارتفاع يسير، سحابة من النوارس يملأ عويلها الفضاء.

لم نكن وحدنا هناك في تلك اللحظات العجيبة، بل آلاف مؤلفة، موج بشري متلاطم من أبناء أرابخا، الذين توافدوا، قادتهم أقدامهم من الأنحاء كلها، واكتظ بهم الشاطئ ومدخل القلعة ليلقوا نظرةً أخيرةً على بحرهم ويودعوه. بدوا كتلةً من الحزن والألم، نساء ينتحبن، تسيل من

أعينهن دموع كبيرة تخضّب ثيابهن، وأيديهن مرفوعة إلى السماء، ورجال ينشجون، مطرقين رؤوسهم، وثمة بضع مصورين سينمائيين يسجّلون الحدث الرهيب بكاميراتهم، وآخرون يلتقطون صورًا فوتوغرافيةً له، في حين كانت تنبعث موسيقى حزينة من مكبّرات صوت في نوافذ المنازل القريبة.

قالت أمي وهي تمسك من ذراعي:

ـ يا لها من قسمة سوداء، طار البحر وشميرام دفعةً واحدةً.

وقال شيخ، على قدر من الهزال والشحوب، لعجوز ترافقه بنبرة اختلج فيها الأسى:

ـ أرأيتِ؟ حتى البحر ارتحل بسبب جورهم، لن ننعم بعد الآن بنسمة عليلة.

سألته العجوز:

ـ جور مّن؟

أجابها:

ـ جور المسعورين المتسلّطين على رقابنا.

ردّت عليه سلفانا:

ـ لم يرتحل من تلقاء نفسه يا عم، حاولوا اختطافه.

التفت إليها رجل عيناه محاطتان بسواد غامق وقال:

ـ صدقتِ يا ابنتي، يريدون أن يوطّنوا بحرًا آخر محلّه.

حدّقتُ إلى سلفانا بنظرة قانطة، وقلت بصوت متهدّج:

ـ وا أسفاه على بحرنا رهيف القلب.

رسمت إشارة الصليب على صدرها:

ـ لا تقلق، يخامرني إحساس بأنه سيعود. الحياة مليئة بالمفاجآت.

ـ وشميرام؟

ـ ستعود أيضًا.

10

أيقظتني أمي قبيل الضحى. أحسست بثقل جفنيّ كأنهما قطعتا رصاص، ووجدت صعوبةً في فتح عينيّ. فركتهما لأطرد صور الأحلام التي ظلت ملتصقةً بهما، وتنفست بعمق. كنت متعرّقًا وعطشان كما لو أني ركضت مسافةً طويلةً في هجير النهار، وكانت الشمس ترسل أشعتها عبر الفرجات الزجاجية للنافذة المزاحة عنها الستارة، ناشرةً بريق الضوء في الغرفة، فبدا ظل أمي ضخمًا، كشبح على الجدار المقابل لها.

أحنت جذعها ومرّرت أصابعها على مفرق شعري:

ـ سمعتك تهذي بصوت عالٍ وأنت نائم، ماذا رأيت؟

ـ رأيت البحر يرتفع إلى السماء.

ـ كل خرا، لا أحد غير ربّنا يسوع، ليتمجّد اسمه، ارتفع إلى السماء، إلى فردوس النور بعد قيامه من بين الأموات.

ـ وحق ربّنا رأيته يصعد وعلى متنه مركب شميرام حتى توارى في الغمام، وكنتما أنتِ وسلفانا معي.

ردّت بعصبية:

ـ لا تشركني في أحلامك المخبولة، من تكون شميرام؟

ـ ابنة الملك آشور.

ربتت على كتفي وغمغمت:

ـ ما زلتَ تهذي، هيا انهض.

ـ على مهلك.

ـ هل قبضت راتبك؟

ـ إي قبضت.

ـ اذهب إلى سوق الغنم قبل أن ينفضّ.

ـ ماذا أفعل في سوق الغنم؟

سألتها بذهن شارد، فقالت:

ـ اشتر لنا خروفًا.

رفعت رأسي واحتسيت كأس ماء كانت موضوعةً على طاولة محاذية لسريري، ولويت وجهي وقلت:

ـ ما حاجتك إليه، هل ستعملين وليمةً؟

ـ لا وليمة ولا هم يحزنون، نذرت أمس أن أعطي خروفًا للكنيسة.

أعدت رأسي إلى الوسادة متذمّرًا:

ـ يا إلهي! ما مناسبة هذا النذر؟

قالت:

ـ نجاة والدك من الموت.

ردّت عليّ، وشمّرت عن ساعديها وهزّت السرير بعنف، وأضافت بنبرة آمرة:

ـ انهض فورًا، واحترس أن تشتري خروفًا أعرج أو مشقوق الأذن.

قلت متأفّفًا:

ـ لماذا لا تعطين ثمن الخروف نقدًا للكاهن؟

جذبت شحمة أذني، وكأني ما فتئت طفلًا، وقالت:

ـ لا يجوز، يجب أن يُنفّذ النذر كما يخرج من الفم.

لم أكن أمتلك دافعًا كافيًا لمغادرة الفراش، لكني نهضت مضطرًّا. تناولت إفطاري على مضض، وجمعت كتبي المتناثرة على الأرض وأعدتها إلى رف المكتبة، وخرجت من البيت. غير أني بدلًا من الذهاب إلى سوق الغنم مباشرةً قصدت الشاطئ، يراودني الأمل في أن أجد المركب لا يزال في المرفأ.

ركنت سيارتي جنب عربة الأطعمة المتنقلة، وأخذت أنظر عبر زجاجها الأمامي إلى البحر، لكن، واخيبتاه، لم يكن ثمة أي أثر للمركب. ملأت كياني موجة كرب على شيء أضعته، حلم تبخّر سريعًا مثل ماء يغلي في مِرجل أو غيمة شاردة، فأسندت رأسي إلى مقود السيارة، وأنا أتنهّد، وأخذت أسترجع صورة شميرام.

اقترب مني الشاب بائع الأطعمة، وسألني:

ـ ألست أنت الذي حذّرته أمس من العاصفة؟

ـ بلى.

ـ هل غادرت الشاطئ قبل هبوبها؟

ـ لا، احتميت بالمغارة.

ـ حين جئتَ أمس كانت المغارة خاليةً من زبائننا بسبب العاصفة.

ـ هل يرتادونها كل يوم؟

ـ قبل المغيب عادةً، يقضون فيها ساعةً أو أكثر ثم يغادرونها منتشين.

ـ ألا يخشون الأشباح فيها؟

ـ أشباح؟! هل ظهرت لك عندما احتميت بها؟

ـ لا أدري بالضبط، ربما خُيّل إليّ أني رأيت واحدًا.

ـ أرجوك لا تشع ذلك بين الناس.

ـ لماذا؟

ـ لأنك ستقطع رزقنا.

ـ حسنًا حسنًا، لكن قل لي هل لمحت في المرفأ مركبًا شراعيًّا من تلك المراكب التي نشاهدها في الأفلام التاريخية؟

ـ لِمَ تسأل عنه، هل تعرف أصحابه؟

ـ لا أعرفهم، أثار فضولي فقط.

ـ إنسَ أمره، ألست مسيحيًّا؟

ـ بلى، كيف عرفت؟

ـ من الصليب في رقبتك.

ـ وما علاقة المركب بكوني مسيحيًّا؟

ـ ربما يكون أصحابه إرهابيين.

ـ ما هذا الهراء؟ كان على متنه ملك آشوري وحاشيته.

ـ يبدو أنك أفرطت في الشرب أمس قبل مجيئك.

ـ ألا تصدّقني؟

ـ سأصدّقك إذا وفيت بوعدك.

ـ أي وعد؟

ـ وعدتني أمس بأنك ستشتري مني علبة بيرة.

ـ أعطني ثلاث. اللعنة، سأحتسيها الليلة.

جلب لي العلب في كيس بلاستيكي، فسدّدت له ثمنها، وخبأتها تحت مقعدي، ثم ترجّلت من السيارة وسألته:

ـ والآن، قل لي هل رأيت المركب؟ وما الذي يدعوك إلى الظن بأن أصحابه ربما يكونون إرهابيين؟

ـ لا، لم أره، لكني سمعت أن الإرهابيين يمكن أن يدخلوا المدينة من البحر متنكّرين، إنهم أبالسة، وربما جاؤا بالفعل ووقعوا في كمين.

ـ يتنكّرون بأزياء آشوريةّ! ما هذا الهراء؟ لقد تحدّثت إلى الملك وكانت ترافقه نساء حسناوات من أجمل ما خلق الله.

ـ يبدو أنك كنت ثملًا جدًا ولم ألحظ ذلك. أشباح، ملك، نساء! عجيب أمرك.

شكّكني كلام الشاب في نفسي، لكني لم أردّ عليه، بل رحت أجول ببصري على طول الشاطئ، كان يعجّ بقوارب الصيادين الراسية، ترفرف الطيور فوقها.

بعد دقائق معدودة برحت المكان إلى سوق الغنم عبر شوارع المدينة المتعرّجة، الهاجعة، المقفرة في ذلك اليوم، عدا من بعض السيارات والسابلة. فتحت الراديو، صوت خشن يقرأ نشرة الأخبار في إذاعة محلية: «انفجرت سيارة مفخخة قرب مرقد ديني وسط بلدة «داقوق» التابعة لأرابخا، وقال مدير شرطة المحافظة، اليوم الجمعة، إن مجهولين فجّروا سيارةً مفخخةً عن بعد كانت مركونةً قرب ضريح ديني في البلدة. وأضاف مدير الشرطة أن التفجير لم يسفر عن سقوط ضحايا بشرية، لكنه تسبب في خسائر مادية فقط. وأشار إلى أنهم لا يعلمون حتى الساعة الجهة التي تقف وراء التفجير، واصفًا إياه بـالإرهابي، وأكد أن الهجوم يهدف إلى زعزعة استقرار البلدة».

راحت تضرب رأسي موجات من الذكريات المؤلمة. كانت أول واحدة مقتل جون ابن خالتي في انفجار عبوة ناسفة على جسر أرابخا الثالث، قبل سنتين، وهو في طريقه إلى الكلية يرافقه أحد أصدقائه. ما حزنت في حياتي على موت شخص عزيز مثلما حزت عليه. كان في سنته الدراسية الأخيرة، يحلم أن يتخرج مهندسًا زراعيًا، ويجد فرصةً للتعيين كي يتسنى له أن يتزوج فتاة أحلامه. كان ذكيًّا على نحوٍ مدهش، مستغرقًا في ذاته، مخلصًا لدراسته إلى حد صارم، يصف نفسه بأنه نصف فلّاح، أحبّ الزراعة منذ صباه بسبب قضائه معظم العطل الصيفية في مزرعة جده العامرة بشجرات الزيتون والسمسم في قرية «باز» الجبلية بدهوك.

قبيل بلوغي سوق الغنم أثارت انتباهي منازل حي «النور» الشعبي الواقع على طريقه. كان يُطلق عليه في ما مضى «الممدودة»، وما زال بعض الناس متمسّكا بتلك التسمية، ولا أدري من أين اكتسبها، بيد أنه من الأحياء التي أُنشئت عشوائيًا في المدينة. ليس هذا هو المهم، بل التغيير الذي طرأ على أشكال بيوته، فقد كانت مبنيةً على عجل باللِّبن والطين، وهُدِّم معظمها لاحقًا، وأعيد بناؤه بالطوب الخرساني أو بالحجر أو بالآجُر، وفتح سكان بعض منها على امتداد الشارع الرئيسي بقّالات وورشًا لتصليح الأجهزة الكهربائية، ومحلات للهواتف الخلوية والمواد الغذائية والخضار وصالونات الحلاقة: «ورشة السعيد لتصليح الثلاجات والمجمدات»، «المستقبل لنك للأندرويد»، «أبو سهيل للدجاج واللحوم المجمدة»، «صالون حلاقة الشباب»، وجلّلت حيطان عدد من البيوت لافتات نعي سوداء تحمل أسماء قتلى قضوا نحبهم في تفجير ستوتة مفخّخة في تلك الآونة. تقلّصت عضلات وجهي تأثرًا، وشعرت بارتجافة في ذقني كأني غطست في بحيرة متجمدة. كنت أقود سيارتي ببطء، لكني زدت من سرعتها لا إراديًّا حالما وقعت عيناي على تلك اللافتات.

لم أجد السوق في مكانه السابق، سألت أحد سكان المنطقة عن مكانه الجديد، فأخبرني بأنه انتقل قبل بضع سنوات إلى جنوب المدينة. حين بلغته فوجئت به مقفرا، قلت في نفسي لا بدّ أن تكون العطلة هي السبب. حرت ماذا أفعل، ثم قرّ عزمي على الرجوع إلى البيت خائبًا، ومحاولة إقناع أمي بأن تنزع الفكرة من رأسها وتعطي ثمن الخروف نقدًا لكاهن الكنيسة، والله وحده يعلم إنْ كانت ستقتنع، أو بأن أعود إلى السوق غدًا، رغم مقتي له، وقرفي من رائحة فضلات الحيوانات فيه.

سمعت وأنا اتجه إلى سيارتي صوتًا يناديني عن بعد «ما طلبك أيها الشاب؟». مشيت صوبه فإذا به رجل يغطي رأسه بغترة تتدلى على كتفيه، وتملأ وجهه تجاعيد الزمن ولحية وافرة شيباء تضفي عليه هيبةً، يجلس على مقعد خشبي صغير من غير مسند ذي قوائم قصيرة، ويمسك بيده اليسرى عكّازةً.

صبّحت عليه فآثر أن يصافحني بيده الثانية التي تبرز عظامها وأوردتها. كانت ملامحه أقرب إلى ملامح الشيخ الذي تأسّى في الحلم على البحر. أنبأته بطلبي فقال مبتسمًا «وصلت إلى مرامك»، ثم أشار إلى دار كبيرة مبنيّة بالآجُر في مكان غير بعيد عن السوق، وأنشأ يشرح لي ببطء وتفخيم:

ـ اذهب إلى تلك الدار واقرع بابها، قل لصاحبها أرسلني إليك شيخ عاشور، إنه يربّي خرافًا ممتازةً، وستجد عنده طلبك. هل تريده أضحيّةً أم لعمل وليمة؟

كدت أطلق ضحكةً لأن اسمه يشبه اسم آشور، لكنني حبستها احترامًا له، وقلت:

ـ أريده أضحيّةً، لا أعرج ولا مشقوق الأذن.

ـ توكّل على الله. ليس لديه خروف أعرج ولا مشقوق الأذن ولا أعور.

شكرته وتوجهت إلى الدار التي أرشدني إليها. حين بلغتها تقاطعت في رأسي بعض الهواجس، وأوشكت على التراجع خشية أن يكون في الأمر خدعة، إلاّ أن هيئة الشيخ الوقور ما كانت تبعث على الريبة، فتحول شعوري، في ثوانٍ، إلى نقيضه.

كان سياج الدار الأسمنتي عاليًا، ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار، كأنه سياج ثكنة عسكرية، وبوابتها الحديدية المطلية بلون كاكي أعرض من المعتاد، بحيث تسمح لشاحنة كبيرة أن تمر منها وهي مسرعة.

حانت مني التفاتة إلى الشيخ، فإذا به يرفع عكّازته ويخبط بها الهواء مرتين، فهمت منها أنه يدعوني إلى أن أقرع البوابة، لكنني انتبهت إلى وجود زر جرس كهربائي على جنب فضغطته، وما هي إلاّ برهة حتى سمعت صوت خطوات مقبلة.

فُتحت البوابة، بصرير مزعج، وأخرجت صبية، تشبه شميرام، جسدها من بين دفتيها، وحيّتني على استحياء بلهجة تقطر عسلًا، رغم لُكنتها، وسألتني عن مبتغاي. طار صوابي حين رأيت وجهها البلوري ذا الخدين المتوردين، والعينين المشرقتين الشبيهتبن بلون البحر، والفم الصغير، وخصلات شعرها الذهبية التي تطفو على كتفيها، وصدرها الناهد.

تلعثمت وأنا أسألها عن رجل الدار، فابتسمت ابتسامةً ساحرةً، وأومأت لي بأن أنتظر قليلًا حتى تنادي عليه. تمنيت أن تطيل بقاءها لأروي ظمئي من جمالها، لكنها أولتني ظهرها وغادرت إلى داخل الدار، تاركةً البوابة مفتوحةً، متباطئةً في مشيها، بمباهاة وخفة ورشاقة، تعمد إلى تقديم ساق على ساق، كظبية تسير الهُوَينى.

«يا يسوع، هل أنا في حلم؟» تساءلت في ذاتي، وأنا أتأمل المخلوقة، وأقارن بينها وبين شميرام. كان ردفاها المكوران، الوارفان، المصبوبان تحت بيجامة ضيقة ذات نسيج خفيف، يرتجّان ارتجاجًا فاتنًا، كأنهما ردفا فتاة في العشرين.

لبثت شاردًا بعد اختفائها، وساورني شعور غامض، مشوّش أعجز عن وصفه، فوضعت يدي على جبيني وأسندت ظهري إلى الحائط.

عقب انتظار، بدا لي مفرطًا في الطول، جاء رجل في نحو الأربعين من العمر، طويل القامة، ذو كاهلين قويين منحدرين، وكان شعره خفيفًا تهدّده بداية صلع، وعيناه رماديتين ثاقبتين، وفي حركاته غلظة واضحة، يرتدي دشداشةً تبنية اللون. صافحني بقبضتين خشنتين، واعتذر عن تأخره، ورحّب بي بحرارة كأنما بيننا معرفة قديمة، وعرّفني إلى نفسه قائلًا إن اسمه يونس. حين أخبرته ببغيتي أدخلني إلى فِناء الدار، وطلب مني أن أنتظر قليلًا.

كان الفِناء يفضي إلى بيتين لكل منهما باب خاص، واحد مفتوح والثاني مغلق. تتوزع في محيط الدار شجرات حمضيات متناسقة، تأتي منها رائحة الخريف لاذعةً، ويشبه منظرها لوحةً انطباعيةً، وفي إحدى زوايا الفِناء يقبع كلب سلوقي ذو وجه قاتم داخل قفص، يبدو هادئ الطبع، يرسل بصره إلى مجموعة يمامات تحط على سياج السطح. وفي الزاوية المقابلة شجرتان إحداهما شجرة تين كثيرة العقد تظلّل المكان لكثافة أوراقها الغامقة التي تكاد تكون سوداء، وتحتها أرجوحة تسع أكثر من شخصين، والثانية شجرة سفرجل ذات ساق قصيرة، متساقطة الأوراق، لا تزال أثمارها الناضجة تتدلى من أغصانها. تلفّتُ يمنةً ويسرةً طمعًا في رؤية الصبية، لكني لم ألمحها لسوء الحظ.

عاد يونس بعد قليل وأشار لي أن أتبعه. قادني إلى حظيرة خلف الدار، تبعد مسافةً تنوف على مائة متر، تكفي لأن تحول دون وصول رائحة مخلفات الحيوانات إلى البيتين، نصف مضللة، تحوي عشرات الخراف

في أَعمار مختلفة، وثمة رجل رأسه أصلع كقشرة بيضة، يرتدي سروالًا فضفاضًا، منهمك في تقديم العلف لها. عرّفني إليه قائلًا إنه صهره ياسر، سلّمت عليه فحدّق إليّ بعينين بارزتين تبدوان كأنهما ستخرجان من محجريهما، ومدّ يده لمصافحتي، وحرّك فمه مرحبًا بي.

اختار يونس خروفًا، وقال:

ـ هذا مواصفاته ممتازة، يلبي مبتغاك تمامًا، سمين ونشط، لم يبخل عليه ياسر بالعلف المركّز الغني بالطاقة والبروتين.

ثم دعاني إلى وضع يدي على ظهر الخروف وتحسّسه جيداً، وأضاف:

ـ لن تشعر بفقرات ظهره لأنه ممتلئ باللحم.

قلت:

ـ أشكرك، من الواضح أنه معافى.

نقدته ثمنه، والتمست من ياسر أن يحمله إلى السيارة، لكنّ يونس أومأ برأسه إلى ياسر، وقال لي:

ـ لن أدعك تذهب قبل أن تتناول الفطور معنا.

كانت تنبض في داخلي أمنية ملحة بأن يدعوني لشرب استكان شاي، طمعًا مني في رؤية الصبية، فقلت له، من غير تردد:

ـ سأكتفي بشرب استكان شاي فقط، أما الفطور فأرجو تأجيله إلى يوم آخر.

ـ كما تشاء، تفضل إلى البيت.

ربت يونس على كتفي، ونحن ندلف إلى حجرة الاستقبال في بيته، المؤثثة تأثيثًا بسيطًا، ودعاني للجلوس على أريكة قبالة نافذتها المشرعة على الفناء، ثم استأذن بأن يغيب عني بعض الوقت.

أخذت أثناء غيابه أستطلع جدران الحجرة، ثمة ساعة من الطراز الكلاسيكي فوق النافذة بجوارها لوحة تخطيط، موغلة في القِدم، لجمال عبد الناصر تحفّ بها سلسلة ورود اصطناعية، ولوحة أخرى شاحبة تحتشد بفواكه، وكف من السيراميك زرقاء اللون في وسطها عين واحدة، تتدلى فوق إطار الباب مباشرةً، وسجادة حائط فوق الأريكة التي أجلس عليها، إضافةً إلى الكثير من الصور الشخصية هنا وهناك، وقد فوجئت بأن عددًا منها صور ليونس ببزّة ضابط في الجيش، بعضها وهو في رتبة ملازم ثانٍ، وأخرى وهو ملازم أول، وبعضها وهو نقيب.

رجع يونس، بعد نحو خمس دقائق، تتبعه سيدة تحمل صينية شاي، أربعينية محجبة، قمحية البشرة، ذات فم بلون البرقوق الأحمر الداكن يتسم بالكبرياء، ووجنتين منتفختين قليلًا كوجنتي أرنب، وحاجبين مشذّبين بعناية، ترتدي ثوبًا طويلًا خبّازي اللون، وتشع من عينيها السوداوين بساطة ريفية. قال:

ـ أم مالك زوجتي.

وأشار لها أن تضع الصينية على طاولة زجاجية في منتصف الحجرة، فأجبت بلطف:

ـ لي الشرف.

وتساءلت في داخلي «هل يضيّف جميع زبائنه هكذا؟».

صبّ يونس الشاي في استكانين، وقدّم لي واحدةً، فارتشفت منها وقلت:

ـ لا ألذّ من الشاي بالاستكان. نحن في البيت صرنا نشربه بالأقداح للأسف.

ـ خاصةً إذا كان مخدّرًا بالهيل.

أردت أن أطيل الحديث معه لعلّي أحظى برؤية الصبية، فرفعت رأسي إلى الجدار وألقيت نظرةً مقتضبةً إلى الصور، وسألته:

ـ كنتَ ضابطًا؟

أذكى سؤالي جمرةً كانت خامدةً في صدره، فتنهد وقال:

ـ قبل الاحتلال. لم يبقَ من ذلك العهد سوى الذكريات وهذه الصور التي لا يمكن طيّها.

تمهّل مدى لحظات، ثم أردف:

ـ كبّلتني الحياة. بعدما حلّ الحاكم الأميركي بريمر الجيش لم يعُد لي أي عمل. لعنة الله عليه وعلى بوش الخنزير.

ـ هل انضممت إلى المقاومة مثلما فعل عسكريون آخرون؟

ـ لم أستطع، كنت مراقّبًا من طرف عملاء متعاونين مع الاحتلال، وعملي في تربية الخراف حتّم عليّ البقاء في الدار.

ـ لو لم يُحَل الجيش لكنتَ الآن ربما في رتبة عقيد.

قلت ذلك، وافترضت في داخلي أن أي شخص آخر لو كان في مكانه لمات غيظًا من المهانة.

ردّ عليّ وكأني عزّيته، أو لامست جرحًا استوطن روحه:

ـ أشكرك كثيرًا، أظنك لا تعرف مدى صعوبة تأقلم العسكري المحترف مع مهنة غير مهنته، خاصةً إذا كان معتدًّا بنفسه.

صبّ استكاني شاي كرّةً ثانيةً وقال:

ـ ماذا كان بوسعي أن أعمل؟ سائق تاكسي أم بائع خُضار لأعيل أسرتي؟ ما كان في استطاعتي أن أمتهن هاتين المهنتين، بل وجدت ضالّتي في تربية الخراف كما ترى. هكذا حكمت الظروف. في بادئ الأمر.. كيف أعبّر لك؟.. عانيت من هذه المهنة وضقت ذرعًا بها، لكن لم يكن هناك مناص من ترويض النفس على القبول بها. وهكذا مضيت في مزاولتها، ومع مرور الوقت اكتسبت خبرةً من عمي عاشور.

ـ عاشور عمك؟

ـ عمي وأبو زوجتي. كان يمتهن هذه المهنة قبل أن تقعده الشيخوخة عن العمل، لكنه لا يستطيع مفارقة سوق الغنم، يجد فيه ملاذًا، يحمل مقعده الصغير صباح كل يوم ويذهب إليه ليبدد ساعتين في استطلاعه حتى يوم الجمعة، ثم يعود أدراجه، وأحيانًا يرشد إلى بيتي مَن يحدس أنه زبون جديد مثلك.

ـ يا له من ولع! حتمًا له في السوق ذكريات وهواجس مضى زمنها، لكنها تمنحه سعادةً. هل يقيم معك؟

ـ لا، إنه يقيم مع ابنه.

ـ وهذا البيت مُلكك بالطبع؟

ـ أجل، وكذلك البيت الملاصق. ورثتهما من أبي.

ـ آسف لإزعاجك بأسئلتي، هل البيت الثاني مؤجَّر؟

سألته بنية معرفة مَن يسكن فيه، وكان فضولي يتزايد لمعرفة سر الصبية، فأجاب:

ـ لا، خصّصته لأسرة نازحة من الموصل.

ـ أهي آشورية أم كلدانية؟

ـ آثورية.

ـ أجل، أجل.. وأنا أيضًا.

ـ أتشرّف بك.

ـ كيف وصلت هذه الأُسرة؟

ـ هي ليست غريبةً بل من معارفي المقرّبين، أعني أنها أسرة صديق شهيد عزيز عليّ جدًا اسمه يوسف، والصبية التي فتحت لك البوابة ابنته مارينا. كنا أنا وإياه ضابطين في كتيبة عسكرية واحدة قبل الاحتلال، وتربطني بأُسرته علاقة عائلية عميقة، وعندما جرى حل الجيش عمل في مهنة حرة أيضًا، ويوم دخل الإرهابيون المدينة شارك هو وشقيقه في مقاومتهم حتى نفدت ذخيرتهما واستشهدا. وبعد سيطرة أولئك الإرهابيين على المدينة أصدروا بيانًا خيّروا فيه المسيحيين بين التحول إلى الإسلام، أو دفع الجزية، أو المغادرة من غير ممتلكاتهم بوصفها غنائم، أو الموت، وما كان أمام أرملة صديقي وابنتها وولدها من خيار سوى المغادرة فاستقبلتهم في داري. ولأن الدار كانت كبيرةً تفيض عن حاجة أسرتي جزّأتها إلى بيتين.

ابتهجت في سرّي لأن الصبية آشورية، وأوحى لي حدسي أنّ يونس يخطط لاتخاذ أمها زوجةً ثانيةً، فهي حتمًا جميلة ما دامت مارينا خارجةً من رحمها، في حين أن زوجته ينقصها الجمال. «لكن هل ستقبل به وهو مسلم وله زوجة؟!» تساءلت في داخلي، ثم قلت «ربما ستقبل على مضض لأنها مكسورة الجناح».

بعد انتهائنا من شرب الشاي استقمت واقفًا للانصراف، فلمحت مارينا من النافذة تعبر مسرعةً إلى جهة شجرة التين، مثل نسمة، وقد استبدلت بيجامتها بثوب مزركش. أخفيت إحساسًا بالغبطة اعتراني، وخطوت إلى باب الخروج، وسبقت مضيّفي في فتحه.

حمل ياسر الخروف ووضعه في صندوق السيارة، فأجزلت له الشكر، وتبادلت ويونس أرقام الهاتف، وودعته وقفلت راجعًا إلى البيت؛ شاعرًا بخاطر قوي يلحّ عليّ بأن أوثّق علاقتي به أكثر لعلّي أخطب ودّ مارينا بعدما فقدت الأمل في شميرام.

11

زارتنا أسين وابنتها مساء ذلك اليوم لتطمئن على أبي، وكانت سلفانا وزوجها قادمين أيضًا من أربيل. بدت حزينةً، ثمة عتمة في داخلها. لاحظنا ذلك من انطفاء نظرتها واختفاء ابتسامتها ودعاباتها التي عهدناها. وحين أصرّت عليها سلفانا أن تبوح بما يختلج في نفسها قالت، بعد تردّد، إن أهلها يريدون تزويجها قسرًا من أحد أقاربهم، لكنها تفضّل الموت على القبول به.

ـ ما مواصفاته؟

سألتُها، فردّت:

ـ يكبرني بعشرين سنة، أرمل يعمل نجّارًا، ويعيل بنتًا في الثانية عشرة وولدًا في العاشرة، وليس له من التحصيل الدراسي سوى الابتدائية.

ـ تستطيعين أن ترفضي.

ـ هدّدوني بأنهم سيتبرّؤون مني إن لم أوافق.

قالت سلفانا:

ـ ليذهبوا إلى الجحيم، لستِ في حاجة إليهم، أنت معلمة تعيشين من عرق جبينك.

فلتت من عينيها دمعتان:

ـ مشكلتي نورجان، أين أتركها عندما أذهب إلى المدرسة؟ أمي لن تقبل...

قاطعتها:

ـ سجّليها في الروضة.

لكن أمي بادرت قائلةً:

ـ أنا أتكفّل برعايتها أثناء غيابك إن لم يعجبكِ هذا الحل.

ـ أشكرك خالتي، أنت بمنزلة أمي، لكني لا أريد أن أرهقك، نورجان كثيرة الحركة، وستسبب لك إزعاجًا. فكّرت في تسجيلها في روضة حكومية، رغم كونها بعيدةً، وأخشى أن يصيب تفجير ما السيارة التي تقلها، فهي تقطع شوارع رئيسةً مزدحمةً بين الحي والروضة. يا الله، سأموت إن حدث ذلك.

سحبت أمي الطفلة من يدها برفق وأجلستها على حجرها وقالت بتصميم:

ـ ستبقى إذًا كل يوم عندي خلا يوم الأحد الذي أذهب فيه إلى الكنيسة كما تعلمين، ولا أتوقع أن المدرسة ستعارض مرافقتها لك يومًا واحدًا في الأسبوع.

أيدنا جميعنا أمي، وأضفتُ قائلًا:

ـ سنتان فقط وتبلغ نورجان السادسة، حينئذ ستكون تلميذةً في مدرستك.

لبثت أسين مطرقةً لحظات، ثم طفح وجهها بغتةً بابتسامة مشرقة، ونهضت وقبّلت أمي من رأسها، وما إن عادت إلى مكانها حتى سمعنا دوي انفجار قريب هزّ أركان البيت، وحطّم زجاج نافذته المطلة على الزقاق. استغاثت أمي «يا يسوع» وهي تشدّ الطفلة إلى حضنها، فيما اعترى الذهول الآخرين. ولكي يبلغ الموقف أوجّه، انقطع التيار الكهربائي بعد برهة فغرقنا في الظلمة.

12

التقيت عمران، بعد يومين، في مطعم «القلعة» على مقربة من الشاطئ، كنا قد اعتدنا ارتياده بين الفينة والفينة. ذكّرته بسؤالي عن المركب الشراعي، ثم حكيت له ما حدث في المغارة والمرفأ أولًا، ثم المصادفة التي جعلتني أرى مارينا. صدّق الحكاية الثانية، ووصف الأولى بأنها استيهام أنتجه النبيذ الذي جرعته في المغارة، أو أن جلّ ما في الأمر أنني غفوت بعض الوقت فتجلّت لي في الحلم، وبلغت من القوة حدًّا جعلتني أعتقد أن أحداثها حقيقية.

استفزّني كلامه فقلت محتدًّا:

ـ بئس الشيطان، أنت تشكّك في قواي الذهنية وتهدم كلّ شيء مثل بائع الأطعمة عند الشاطئ.

ـ ماذا قال لك؟

ـ زعم أنني كنت ثملًا، وأن مَن كانوا على متن المركب ربما إرهابيين متنكرين.

ـ اهدأ يا صديقي، وأجبني فقط..

ـ بِمَ أجيبك؟

ـ كيف تعقل رجوع الملك آشور وحاشيته إلى الحياة بعدما شبعوا موتًا منذ ثلاثة آلاف سنة؟

أعملت فكري وقلت:

ـ ثمة احتمالان، إما أن تكون أرواحهم حلّت في أجسام آخرين عن طريق التناسخ، أو أنهم كائنات بحرية حولتهم قوة سحرية تسكن في أعماق البحر إلى بشر بهذه الهيئة.

ـ هل تؤمن بفكرة التناسخ؟

ـ ملايين الناس في العالم يؤمنون بها، خذ أتباع الديانات الهندوسية والسيخية والبوذية والتاوية، وحتى بعض الفرق الإسلامية.

ـ هذا من قبيل الهراء، وأنت مسيحي.

ـ لو كان هراءً لما وجد طريقه إلى عقول آلاف المسيحيين اللوثريين في الغرب.

ـ هؤلاء الآلاف يعانون من خلل روحي بسبب غرقهم في الماديات، والكنيسة عاجزة، أو لا توفّر لهم إلاّ جانبًا ضئيلًا جدًا من حاجات الروح. أقول هذا رغم إعجابي بالتقدم الذي حققه الغرب.

ـ والاحتمال الثاني؟

ـ هذا أضرط من الاحتمال الأول.

صمت هنيهةً ثم قال:

ـ لدي اقتراح.

ـ هاتِه.

ـ استثمر الاستيهام برمّته في كتابة رواية.

ـ رواية؟

ـ اجعل اللقاء بالملك آشور بدايةً لأحداث لاحقة تقع بعد دخوله المدينة. أكتب ما يطوف في مخيلتك، واحبكه بمهارتك السردية.

قلت:

ـ لكنها ستكون روايةً فانتازيةً.

قال:

ـ لتكن، أين المشكلة؟

ـ أنت تعرف أن كل محاولاتي الروائية السابقة واقعية. صحيح أن أحداثها متخيّلة لكنها محتملة الوقوع، أو قابلة للتصديق.

ـ لا تعقّد الأمر، تخيّل واكتب واسترسل على هواك.

ـ المسألة ليست هيّنة يا صديقي. كيف أجمع بين شميرام ومارينا في رواية واحدة؟

ـ ومَن طلب منك أن تجمع بينهما؟ دعك من مارينا، إنها شخصية واقعية ولا صلة لها بالأحداث المتخيَّلة.

ـ أي طعم يبقى فيها من غير مارينا؟

ـ عزيزي، مارينا موجودة، احتفظ بها لمشروع آخر ربما تقدم عليه.

ـ أي مشروع؟

ـ ربما ستفكّر في الاقتران بها ما دامت جميلةً مثل شميرام. وثّق علاقتك بيونس لتصل إليها.

أطرقت قليلًا، وقلت:

ـ ثمة فكرة أخرى راودتني الآن.

ـ ما هي؟

ـ رسالة الماجستير التي أنوي كتابتها.

ـ ما بها؟

ـ ما عدتّ متحمسًا للبحث في موضوع آثارنا المنهوبة أيام الاحتلال، فيه ملابسات كثيرة ستوقعني في إشكاليات بحثية عوصاء.

ـ وما علاقة هذا الموضوع بالرواية؟

ـ أخصّص الرسالة للملك آشور.

ـ ما أدراك أن واحدًا غيرك لم يكتب بحثًا عنه؟

ـ تسألني وأنت الأعلم مني؟

ـ ماذا ستكتب عنه؟

ـ أكتب عن حياته، أفعاله العظيمة، فتوحاته، وبطولاته.

ـ إن كنت راغبًا في كتابة رسالتك عنه فضع في حسبانك أن تكون موضوعيًّا.

ـ كيف؟

ـ تتناول مسالكه البشعة أيضًا.

ـ ماذا تعني بمسالكه البشعة؟

ـ استبداده، عنفه المفرط مع خصومه، قسوته الشديدة مع أسرى الحروب ورميهم في النار، أسلوب القتل والتعذيب الذي كان يطبّقه على بعض المدن والقرى التي تستعصي على الجيش الآشوري فتحها، أو ترفض السماح له بالمرور على أراضيها، وليس آخرها توطين الآشوريين في المدن المفتوحة ليصبحوا سادتها، وينتفعوا بخيراتها، ويخمدوا ثورات أهلها.

ـ تتحدث عنه وكأنه الملك الوحيد في التاريخ الذي شهر سيف الاستبداد، ومارس العنف بإفراط ضد خصومه.

ـ لا أبدًا، لا أزعم ذلك، معظم الملوك والأباطرة والرؤساء في التاريخ من هذا النوع، ولا يصحّ أن تعمي الأهواء والميول أعيننا ونتناسى فسادهم حين نكتب عنهم.

ـ أشكرك على هذه النصيحة، لكنني لا أستطيع الأخذ بها.

ـ لماذا؟

ـ إعجابًا مني بالملك ووفاءً لانتمائي الآشوري.

ـ أنت أيضًا تأشورتَ؟ أول مرة أسمع منك هذا الكلام، مذ عرفتك وأنت آثوريّ.

ـ كنت واهمًا.

ـ لكن باحثين عديدين يؤكدون أن الآثوريين سريان من أتباع الكنيسة

النسطورية، ولا يوجد أي سند علمي تاريخي أو أنثروبولوجي يثبت أنهم أحفاد الآشوريين.

ـ ليقولوا ما يقولون، إنهم سريان أو كلدان وأنا أخالفهم.

ـ على ماذا تستند؟

ـ لا أحتاج إلى سند، مصطلح آثوري تحريف لمصطلح آشوري، والأمر جليّ كالشمس في رابعة النهار.

ـ اعذرني نينوس، أنت راكب رأسك اليوم، تسير وراء سراب، أنتم آثوريون لا آشوريين، وهذا لا ينتقص منكم، أما الحركات السياسية التي تشيع ذلك فإنها تهدف إلى تحقيق أهداف سياسية أقلها إنشاء إقليم باسم آشورستان أو آشوريا.

ـ ولِمَ لا؟ هل الأكراد أعرق منا؟

ـ لا أحد أعرق من أحد، لكنّ اسم الإقليم سيطمس أسماء إثنيات أخرى.

ـ اسم كردستان أيضًا يطمس أسماء إثنيات غير كردية.

ـ يبدو أنك انضممت إلى إحدى هذه الحركات؟

ـ لم أنضم، لكن ربما سأنضم إلى الحركة الديمقرطية الآشورية.

ـ زَوعا؟!

ـ ما بها؟ إنها تدافع عن الوجود القومي الآشوري.

ـ في رأي الكثيرين من السريان والكلدان أنها حركة إقصائية، ابتدعت

اسمًا مطاطيًّا لها يصفونه بـ«القطاري» (كلداني- سرياني- آشوري)، ويرفضونها لأنها تضع الجميع في سلة قومية واحدة هي الآشورية، وتعُدّ السريان والكلدان مذهبين كنسيين تابعَين لها. لا بل إنها تعتبر الجنس الآشوري جنسًا متفوقًا وينبغي على الآخرين الخضوع له.

ـ هؤلاء الذين تشير إليهم قلة وليسوا كثيرين، ليذهبوا إلى الجحيم.

ـ أوف! أوف! أنت اليوم خربان من الآخر يا صديقي.

13

في اليوم التالي للقائي العاصف بعمران أُجبرت على مرافقة أمي إلى أربيل لحضور حفل عيد ميلاد أختي سلفانا التاسع والعشرين. ما كان بمقدوري الإفلات من إداء هذا الواجب رغم مشاغلي. حاولت أقناع أبي بمرافقتها لكنه تملّص أيضًا، متعلّلًا بأن لديه التزامات عديدةً مع زبائنه في المحل. لكني شككت في عذره، بدا لي غير مقنع ألبتّة، فالزبائن باستطاعتهم أن يصبروا يومًا أو يومين، وغلب عليّ الظن أن في باله أمرًا ما، وسيكون غيابنا، أنا وأمي، فرصةً مناسبةً لتحقيقه. كنت أعلم أن لديه علاقة بامرأة تمتّعه، اكتشفت الأمر حين حللت محله في العمل أثناء مرضه، إلا أني كتمت السر. كيف حدث ذلك؟ ذات مرة جاءت إلى المحل امرأة لم تتخطّ سن الأربعين، ذات مظهر جميل، مليئة بالحيوية، تضع على بشرتها مكياجًا خفيفًا يمنحها جاذبيةً. ألقت عليّ التحية، وسألتني عن أبي قائلةً إنها تعلم بمرضه وترجو أن أُطمئنها عليه، وقبل أن أفتح فمي أضافت:

ـ وددت أن أتصل به لكني لم أجرؤ.

سألتها:

ـ لماذا لا تجرؤين ما دمت تعرفينه؟

ترددت قليلًا، ثم أجابت:

ـ أخشى أن تردّ أمك على الهاتف فأُحرج.

ـ هل أنت من زبائنه؟

تبسّمت بتصنّع:

ـ لا، زوجي المرحوم كان صديقه.

ـ مَن أعلمك بمرضه؟

ـ أرسل لي رسالةً نصيّةً منذ بضعة أيام خلت، وطلب...

قطع جارنا، صاحب محل الحلويات، كلامها مناديًا من الباب:

ـ نينوس، هل تحسنت صحة والدك؟

أجبته بأنه لا يزال مريضًا، وواصلتُ الحديث مع المرأة:

ـ ماذا طلب منك؟

ـ طلب ألاّ أردّ على رسالته.

ـ هذا غير ممكن، انتظري سأتصل به.

تراجعتُ خطوةً إلى الوراء والتقطتُ هاتفي من دُرج طاولة الحساب، رغم أنني لم أكن أنوي الاتصال بأبي فعلًا، وإنما أردت أن أعرف ردة فعلها، أما هي فقد فتحت فمها كما لو أنها أرادت أن تأخذ جرعة هواء، ثم أسرعت في مغادرة المحل، من دون أن تنبس بكلمة. بعد هنيهة لمعت في ذهني فكرة اللحاق بها وسؤالها عن اسمها، غير أنها كانت قد توارت عن الأنظار عندما خرجتُ.

أدركتُ يومها أن لأبي صلة غير بريئة بتلك المرأة، وقد كذبت في

ادعائها أنه كان صديقًا لزوجها المرحوم، ولا أدري لماذا تصرفت بتلك الحماقة التي فضحت علاقتهما!

بعد عودتي من أربيل لاحظت علامات الانشراح باديةً على وجه أبي، حتى أنه من شدة غبطته كان قد فاجأ أمي، بسيطة العقل، بهدية ثمينة اشتراها لها، وهي عبارة عن قلادة ذهبية تنتهي بصليب، زاعماً أنه ربح مالًا وفيراً في صفقة ساعات سويسرية باعها لساعاتي قدِم من بغداد أثناء غيابنا، فأيقنت أنه نال مبتغاه من عشيقته.

هل أعدّ سلوك أبي هذا نزوةً، إن لم أقل انحرافًا في جميع الأحوال؟ هل عليّ مواجهته، رغم كونه هو الأب وأنا الأبن، وتذكيره بأن ما يفعله خطيئةً؟ صحيح أنه غير ملتزم دينيًّا، لكنّ ما يفعله يجرح كرامة أمي، ولا يناسب سنّه، فهو في التاسعة والخمسين، وقد صار جَدًّا منذ بضعة أعوام. إلاّ أني لا أستطيع إعفاء أمي من السبب أيضًا، فهي لم تعُد تعتني بنفسها مثلما كانت تفعل قبل سنوات، أصبح التديّن والكنيسة والمقدّسات شاغلها الأول، تتمسك بها وتدير ظهرها لأنوثتها وتهمل رغبات أبي، مع أنها تحبه، وسنها أصغر من سنه باثنتي عشرة سنة. ولا أزعم بالطبع أن أبي يهوى تلك المرأة بالمعنى الرومانسي، بل يجد فيها متنفسًا لغريزته، فهو رجل حسّي ينجذب إلى النساء الجميلات اللواتي يعتنين بزينتهن، ويبرزن مفاتنهن، ولا يحفل بعواطفهن. عرفت ذلك حين صحبته مرةً إلى شقة العم جورج خلال سنتي الدراسية الأولى في الجامعة. كنا أنا وميخائيل في الصالة نصغي إلى حديثهما وهما يحتسيان العرق في غرفة مجاورة، وكان أبي يتغزّل بالمرأة التي لا تدّخر وسعاً في جذب الرجل إليها، وتحريك غرائزه بما تمتلكه من فن الإغراء، ويذم المرأة التي تهمل أنوثتها، فتواطأ

معه العم جورج، الذي يتعته عادةً إثر كأسين، وذهب إلى أبعد من ذلك، وسط النقاش المتصاعد، قائلًا: «هيه يا صاحبي! وحق العذرا إن العشيقة فقط تمتاز بهذا الفن، أما الزوجة فإن عِشرتها تغدو بعد بضع سنوات باهتةً وروتينيةً إذا لم تسلك سلوك العشيقة، إذا لم تلعب دورها بذكاء في إثارة بعلها، تشرب كأسًا معه في مخدعهما، تدندن له، تدس ملعقة مزّة في فمه بين حين وآخر، ترقص له مثل راقصات الستربتيز، وتفعل أشياء أخرى يفتقدها في بيته، ثم تجره عنوةً إلى الفراش وهي في كامل عريها!». أستُثير أبي على الفور فضرب الطاولة بيده، ثم رفع كأسه وهتف «وحق الشيطان أنت لست ميكانيكيًّا يا جورج بل الشيطان نفسه. بصحتك يا صاحبي... ما أحلى كلامك.. لا ألذّ من العشيقة حين تتعرى حتى لو كانت قحبةً!». لكن العم جورج احتج قائلًا «قحبة! لا يا حمار، هذا ليس صحيحًا، كيف تستمتع بها إذا كانت تفتح فخذيها لكل من هبّ ودبّ؟». شعر أبي لحظتها بالهزيمة فملأ كأسًا أخرى ولم ينبس ببنت شفّة.

ليلتها شرب أبي أكثر من طاقته. كان السكر باديًا عليه، فكيف يا ترى سيقود سيارته والسماء تنثّ ثلجًا؟ وقتها ما كنت أجيد السياقة، فاقترحت عليه أن نترك السيارة ونذهب إلى البيت بتاكسي أو أن نبيت عند العم جورج، لكنه ركب رأسه وأصر على قيادة السيارة. جلست بجانبه وأنا أرتعد من الخوف. ناشدته أن يسوق على مهل فلم يعرني أذنًا صاغيةً، كان يبتسم فقط، يبتسم كثيرًا وعيناه جاحظتان تحدقان إلى زجاج السيارة الأمامي الذي يغشاه ضباب خفيف، وإلى ماسحتيه اللتين يتهالك الثلج تحت حركتيهما، ويصغي إلى الصرير الصادر عنهما، وأخذ يسرع كأنه يسلك طريقًا خارجيًا، غير مبالٍ لا بالإشارات الضوئية ولا بضيق الشوارع.

تمنيت أن تعترضنا في تلك الأثناء سيارة شرطة مرور أو نجدة لتحجز السيارة أو تخالفه وتلزمه على السير ببطء، لكن الشوارع كانت خاليةً لسوء الحظ وكأننا في مدينة يقطنها الملائكة، رغم أنّ الوقت لم يكن قد تعدى الحادية عشرة. وفي منتصف المسافة انعطف أبي على حين غرّة إلى شارع فرعي من دون أن يخفف من السرعة، فحادت السيارة عن الشارع وصدمت دعامةً خرسانيةً لاحدى المباني على الرصيف، وتحطّم نصفها الأمامي. لم يُصب أيّ منا بأذى، عدا بكدمات بسيطة، لكنّ الحادث كان فاصلًا بين أبي وقيادة أي سيارة في ما بعد.

14

حاولت أن أكابر في البداية، وأتجاهل اقتراح عمران بأن استثمر حكايتي مع الملك آشور في كتابة رواية، وأمضي في مشروع رسالة الماجستير عنه، لكنني لم أستطع. قضيت أسبوعًا كاملًا وأنا أفكّر في الموضوع، وأخيرًا فترت حماستي وانتهيت إلى إلغائه. قلت لنفسي «في مستطاع الكثيرين أن يكتبوا أبحاثًا أكاديميةً عنه، لكن لا أعتقد أن كاتبًا فكّر في استحضاره بعمل سرديّ فانتازي».

قلّبت الفكرة في رأسي مرارًا حتى قرّ قراري أن أكتب ما يطوف في مخيّلتي، كما قال عمران، وأسرد ما جرى بعد أوبتي من الشاطئ على النحو الآتي:

15

شعرت، وأنا أدخل إلى الزقاق المؤدي إلى بيتنا، كأنني عائد من رحلة طويلة وشاقة. كان خِلوًّا من الباعة، يغلّفه السكون. لا بدّ أن تكون العاصفة قد شرّدتهم وإلا لما تركوا أماكنهم قبل مغيب الشمس.

من حسن الحظ لم تكن أمي في البيت، ربما كانت في زيارة لجارتنا أم سيمون أو عند أسين. غيّرت ملابسي وتعطّرت، واستخرجت من خزانتي بعضًا من ثيابي وحذاءً ما عدت أستعمله منذ مدة، ودسستها في حقيبة صغيرة، ومضيت إلى الشاطئ؛ سالكًا الشوارع نفسها التي سلكتها بُعيد الظهر.

عند اجتيازي الدكان التي اشتريت منها علبة سجائر فوجئت بتوقّف حركة السير تمامًا، وأبواق السيارات تملأ الشارع زعيقًا تعبيرًا عن نفاد صبر أصحابها وانزعاجهم. حدست أن حادثًا ما قد وقع، أو أن موكب مسؤول كبير يمر فعطّلت الشرطة السير. أدرت رأسي يسارًا فإذا بي أُفاجأ بالسيارة التي أقلّت ديانا ورفيقتها واقفةً أمام البوابة، وسائقها قابعاً خلف مقودها، منشغلًا بمكالمة هاتفية، ينفث دخان سيجار ثخين على نحوٍ متقطع، ويتلفّت كأنه في انتظار شخص ما.

تسنّت لي هذه المرة رؤية الرجل عن كثب، نصف أصلع، وجهه أحمر

مكتنز، حليق الشارب، نافر الأذنين، عيناه واسعتان كعيني حرذون، يرتدي قميص كاروهات ذا كمّين قصيرين بكسرتين في طرفيهما يصلان حتى منتصف العضدين. خمّنت أنه مِمّن يسمونهم حديثي النعمة، أحشاؤه مملوءة بمال الفساد.

بعد دقائق خرجت ديانا من البوابة تحمل بيدها كيسًا مزخرفًا. تحدثتْ إلى الرجل، عبر نافذة السيارة، بضع ثوانٍ، وسلّمته الكيس وأقفلت راجعةً.

لم أُولِ الأمر أهميةً كبيرةً، فأنا لا أعرف طبيعة العلاقة بينهما، كان أهم شيء بالنسبة لي أن تُستأنف حركة السير لأصل إلى مرامي من دون تأخير. في أثناء ذلك لمحت الفتى النازح بائع الصحف قادمًا من الجهة التي أنوي أن أسلكها. كان يرتدي ملابس رياضيةً، ويحمل مجموعة رزنامات إلى جانب الصحف. لوّحت له بذراعي فهرول إليّ:

ـ أتريد الزمان أم المدى؟

سألني.

قلت:

ـ لا حاجة لي بأيٍّ منهما.

ـ ولا رزنامة؟

ـ لا.

ارتسمت على وجهه المرهق الشاحب علامة حزن:

ـ لماذا ناديتني إذًا؟

ـ لأسألك عن سبب توقّف السير.

ـ كالعادة.

ـ حادث؟

قال بشيء من التردّد:

ـ لا، موكب مسؤول أجرب لا يساوي قمري[1].

أعجبتني جرأته، فأعطيته ثمن صحيفتين. أشار إلى رزمة الصحف:

ـ أتريد كليهما؟

ـ لا، أنا متبرّع بهما لك. ما أخبار حمام العليل؟

طفرت دمعات من عينيه، فبدا لي أنني أثرت شيئًا من الأسى في نفسه. تنهدّ وقال بصوت خفيض.

ـ لا جديد.

شعرت بأنّ سؤالي كان خاليًا من المعنى، فاستدركت الموقف:

ـ ستفرج إن شاء الله يا صديقي. امسح دموعك، ما اسمك؟

ـ مروان.

ـ اسم فخم يليق بك. هل يضايقك أحد في الشارع؟

ـ أشخاص قليلون.. حين يعرفون أنني نازح.

(1) تسمية شعبية كانت تُطلق على عملة «الآنة» الهندية قبل عقود، ويُشبَّه بها الشخص الذي لا يساوي شيئًا.

ـ طُز فيهم، هؤلاء أيضًا لا يساوي أحدهم قمريًّا. احرص على نفسك، وعُد إلى البيت قبل مغيب الشمس دائمًا.

هزّ الفتى رأسه وشكرني ومضى.

أردت أن أفتح راديو السيارة وأسمع أغنيةً أو موسيقى مهدّئةً للأعصاب، لكن نغمة بريدي الإلكتروني في هاتفي شغلتني عنه. يا للعجب! رسالة من هيلين بعد كل هذه السنين:

عزيزي نينو،

أنا نادمة.

اقترفت خطأً فادحًا، هل تقبل اعتذاري؟

أعرف أنه اعتذار متأخر، وأنك حانق عليّ. أرجو أن تغفر لي حماقتي. جازفت، انسقت وراء حلم غبي أغواني، ألهب خيالي فتبعته مثل المنوّمة وتركتك مصدومًا. كنتُ صغيرةً، طائشةً، أو سمّني ما شئت، وها هو الحلم قد تبخّر، وانهالت الحقيقة فوق رأسي.

أتذكُرُ أنني حدثتك في رسالتي الثانية قبل خمس سنوات عن أميركي من أصول لاتينية؟ وعدني بأن يتزوجني، ويأخذني في رحلة شهر عسل إلى ريو دي جانيرو، ويغرقني في بحر ثروته. لكنّ النذل خدعني بعد أن أقمت معه ثلاثة أشهر في شقته. اختفى على حين غفلة مني من دون أن يترك لي سنتًا واحدًا.

لم أجرؤ على طلب المساعدة من أهلي لأني خذلتهم، واضطررت إلى مغادرة الشقة حين تبيّن لي أنها ليست ملكه كما زعم، وكان عليّ أن أتدبّر

أموري، فعدت إلى ديترويت، وأقمت مؤقتًا عند أسرة عراقية مهاجرة إلى أن عثرت على عمل في متجر تملكه سيدة، يفتح 24 ساعةً، فسمحت لي بالسكن في مخزن متروك بالطابق العلوي.

بعد مدة ضقت ذرعًا من ذلك المخزن، شعرت بالاختناق، لا أنيسة لي فيه تكلمني وأكلمها، وجدت نفسي المرأة الأشد عزلةً في الأرض فقررت أن أغادره. عرضت عليّ زميلة مناوبة لي في العمل اسمها نازنين أن أشاركها غرفتها في شقة أهلها، وهي عراقية فيليّة من ديالى، عزباء أكبر مني بست سنين. أُسرتها صغيرة تتكون من والديها وجدّتها السبعينية، ولها أخ توأم يعمل ويقيم في بلدة قريبة. وافقت طبعًا، وصرت أعينها في النفقات والأعمال المنزلية، فأغدقت الأسرة عليّ بكرم لطفها وسجاياها الطيبة.

لكن راحتي لم تدم طويلًا، تهاوت بسبب الأخ التوأم، صار يكثر من زياراته لأهله، ويتحرّش بي، مستغلًا غياب أخته في العمل، وحينما كنت أصده يسمعني كلامًا خشنًا. إلاّ أني لم أخبر نازنين حتى لا تحدث مشكلة بينهما، اختلقت عذرًا ورجعت إلى سكني في المخزن البائس إلى أن يفرجها الله.

ماذا أفعل؟ أشعر الآن بتعاسة شديدة، ولا أدري إن كنت سأقاوم أو أسلك طريقًا آخر أنافس فيه تعيسات أخريات. جلّ ما أخشاه أن أنتهي إلى هذا المآل لأنني لم يعد لديّ ما أخسره. بذلت جهدًا في التفكير بالأمر ولم أصل إلى نتيجة.

صدّقني يا نينو لا أجد أحدًا غيرك أشكو له حالي بعد أن أصبحت حياتي إحباطًا يوميًا.

أنا منكسرة الآن فبماذا تنصحني؟

آلمتني رسالة هيلين، وشعرت بإشفاق، إن لم تكن دفقة عاطفة، تجاهها، لكني لم أُسدِ العون لها. فكّرت في أن أنصحها بالرجوع إلى أرابخا، إلاّ أني دفنت الفكرة خشية أن تحاول التقرب إليّ إذا رجعت، في حين ما عدت أنا نينوس الذي كان يهيم حبًّا بها، كففت عن ذلك منذ زمن طويل، أو بالأحرى دفنت هيامي بها في قبر الماضي، طردتها من قلبي، وأصبح لكلينا طريق يختلف عن الآخر. كل شيء يتغير بفعل الزمن.

إثر ربع ساعة انقطع زعيق الأبواق، وتحرك طابور السيارات ببطء أولاً ثم بسرعة.

16

حين بلغت الشاطئ ركنت سيارتي جنب عربة الأطعمة المتنقّلة. لم تكن موجودةً حين غادرت الشاطئ، ربما جاءت في ما بعد.

قبل أن أترجّل دار في بالي سؤال مهم للغاية: أين سيقيم الملك آشور وحاشيته؟ وحتى لو أني وجدت فندقًا يسعهم كلّهم كيف سأقنع إدارته بأنهم لا يحملون وثائق إثبات الشخصية؟

ما العمل إذًا؟

تعثّر تفكيري، وأنا أرسل بصري إلى المركب، الذي عاد إليه الجمع، واتخذوا مواقعهم فيه بانتظار قدومي، وترددت في إنجاز المهمة، وكدت أبرح المكان، جارًّا أذيال الخيبة. لكن بغتةً شرقت نفسي بإلهام داخلي، أوحت لي بفكرة لم أجد أنسب منها: أن أستأجر حافلةً كبيرةً، وآخذهم إلى نادينا الرياضي، وأُطلع مديره عوديشو، الذي تربطني به علاقة قرابة، على المسألة لعلّه يستضيفهم.

اجتذبتني الفكرة، «لِمَ لم يتسنّ لي استحضارها من أول وهلة؟ إنها الحل الأمثل». ورأيت أنّ من الأفضل عرضها على عوديشو أولًا. تلفنت له فلم يرد. كررت المحاولة ثانيةً ثم ثالثةً لكن من دون فائدة، في كل مرة كان يأتيني الرد الآلي «الرقم المطلوب لا يمكن الاتصال به الآن،

يُرجى الاتصال في وقت لاحق». قلت في ذاتي فلأغامر.. لا أعتقد أنه سيخذلني.

اقترب مني الشاب بائع الأطعمة، الذي سبق أن حذّرني من حدوث عاصفة، وقال:

ـ ها أنت ذا عدت ثانيةً، هل غادرت قبل هبوب العاصفة؟

ـ لم أمكث طويلًا.

ـ يبدو أنك تحب البحر كثيرًا.

ـ إحساسك صحيح، منذ متى بدأت تعمل هنا؟

ـ منذ شهر تقريبًا.

ـ خلال هذه المدة انقطعتُ أنا عن المجيء بسبب مشاغلي.

ـ وعدتني بأنك ستشتري مني بعد عودتك من البحر لكنك لم تعد.

ـ حين عدت لم أجدك. اعطني أربع علب هاينكن.

ـ كبيرة أم صغيرة؟

ـ كبيرة.

ردّ ملاطفًا «تدلّل»، وأسرع في جلب علب البيرة بكيس بلاستيكي. سدّدت له ثمنها، وفتحت واحدةً فاندفعت منها رغوة شفطتها على عجل، ثم كرعت العلبة وخبأت الباقي تحت مقعدي.

سألت الشاب:

ـ هل لمحت أحدًا على متن المركب الراسي على المرفأ؟

ـ لمحت ثلاث فتيات عند حافته يرتدين ملابس غريبةً. ألقت احداهن شيئًا ما إلى الماء، ربما كان بقايا غذاء، طعامًا للسمك، ثم اختفين. في الحق لم يمكثن أكثر من دقيقتين. هل يصورون فيلمًا؟

باغتني سؤاله، فترددت لحظةً ثم أجبت:

ـ نعم، يمثلون فيلمًا تاريخيًّا.

ـ لا بدّ أنهم أصحابك.

ـ أجل، أجل.

ـ ما داموا أصحابك قل لهم إنني في خدمتهم، مستعد لتلبية طلباتهم من الطعام والمشروبات. وإذا احتاجوا إلى ممثلين كومبارس يمكنني أن آتي لهم بأصدقائي.

ـ تدلّل، سأفعل.

ـ ربما لا تصدّق أن أحد أصدقائي بارع في التمثيل الفكاهي، يقلّد مستر بن وكأنه هو سبحان الله!

ـ لكن الفيلم الذي يصورونه ليس كوميديًا.

ـ يمكن أن يعطوه دورًا صامتًا، مثل جندي أو طباخ أو خادم. صدّقني إنه من عائلة فقيرة ينفعها أي مبلغ يمنحونه له.

ـ إن شاء الله، سأحاول.

انحدرت إلى المرفأ، وما إن وطأت قدماي لوح العبور حتى رأيت واحدًا من جنود الملك على ظهر المركب؛ متكئًا بمرفقيه على طرفه

الجانبي، مادّا عنقه إلى الماء لمراقبة مجموعة أسماك تطفو على سطحه، وهي تتنافس على التهام فضلات من الغذاء، ربما ألقتها إحدى النساء من كوّة قمرتها. كان وحيدًا، مسلحًا برمح ودرع وسيف ورأسه محميًّا بخوذة، له بشرة لامعة ولحية خفيفة. لم يلمحني فتوجبّ عليّ أن أناديه، بيد أني كنت أجهل اسمه. صفّرت له فاستعدل واقفًا، وبانت قامته معتدلةً مثل قامتي تقريبًا، أو هكذا رأيتها في أقل تقدير، وبدا لي أنه الشخص الذي سيرافقني. خمّنت ذلك من لحيته المشذّبة، فربما يكون الملك قد أمر جميع الرجال بقص لحاهم وشعر رؤوسهم. هرع إلى مقدمة المركب وحيّاني رافعًا درعه إلى الأعلى. لوّحت له بالحقيبة فأشار لي أن أرميها له، رميتها في احتراس فالتقطها وقال متباهيًا:

ـ وقع اختيار الملك عليّ. انتظرني ريثما أرتدي ثيابك، وأضع قطع الذهب محلها. كم واحدة تكفي؟

فاجأني سؤاله، قلت:

ـ هاتِ عشر قطع.

«يا إلهي! عشر قطع، إنها ثروة» قلت في نفسي مغتبطًا، ثم خاطبته:

ـ ولا تنسى أن تترك الخوذة يا..... ما اسمك؟

ـ أمينو.

أومأت برأسي استحسانًا فمضى وهبط إلى قعر المركب.

خطوت بعض خطوات على رصيف المرفأ، وأخذت أتطلع إلى نوافذ قمرات المركب لعلي أحظى برؤية شميرام، لكنّي وجدتها مغلقةً، عدا

واحدة يطلّ منها الأمير شلمانو، متأملًا خرائب القلعة، وكأني به يقول لنفسه «ليس من العدل أن تؤول إلى هذا المآل». حييته ملوّحًا بيدي، فردّ التحية بتلويحة مماثلة ثم اختفى داخل قمرته. قفلت عائدً إلى لوح العبور، ودخنت سيجارةً بانتظار عودة أمينو. لم يطل به الوقت، عشر دقائق تقريبًا، رجع بهيئة رجل عصري، بقميص سمائي وبنطال كحلي كأنهما مفصلان خصيصًا له. قفز إلى لوح العبور برشاقة وخفّة وناولني الحقيبة. فتحتها لأتأكد من عدد قطع الذهب، لم أجد فيها سوى ثلاث.

ـ ما هذا يا أمينو؟

ـ ماذا؟

ـ ثلاث فقط!

ـ اعذرني، إرادة سيدنا الملك.

أردت أن أقول له «عُد إليه وابلغه بأنها لا تكفي»، لكني خشيت أن يأخذ الملك انطباعًا سيئًا عني، ربما يتصورني خدّاعًا ويتراجع عن وعده بتزويج ابنته مني، لذا آثرت الصمت.

طلبت من أمينو، حال ركوبنا السيارة، أن يحدثني عن شميرام، إلاّ أنه سألني:

ـ هل راقت لك؟

ـ كثيرًا.

ـ لكنها لا تزال صغيرةً. ولا أتصور أن الملك يزوجها قبل زواج أختيها الأكبر منها أميديا وإيشارا.

ـ لقد وعدني، وأنا أحب الفتيات الصغيرات.

ـ لم يعدك، قال إنه سينظر في الأمر.

ـ لا، لا، سيوافق، كم عمرها؟

ـ لا تزال فرخةً، خمسة عشر عامًا.

ـ البركة في الفرخات. لكنها تبدو أكبر من هذا العمر.

ـ ذلك لأنها بلغت باكرًا.

ـ كيف عرفت؟

ـ منذ عام فقط احتفلوا بدخولها سن البلوغ.

ـ عجبًا، تحتفلون ببلوغ الفتاة؟

ـ ما وجه العجب؟ ألا تحتفلون أنتم؟

ـ في بلدنا لا، لكن في بلدان أخرى نعم. هنالك ترافق الاحتفال طقوس غريبة.

ـ هل هذه البلدان قريبة؟

ـ بعضها قريب وبعضها الآخر بعيد.

ـ ياه..! أنت تعرف أشياء كثيرةً، لكنك لا تعرف شيئًا مهمًّا.

ـ أي شيء؟

ـ شميرام...

ـ ما بها؟

ـ لسانها معقود، لا تنطق.

سألت مصعوقاً:

ـ بكماء؟!

ـ تلفظ بضع كلمات فقط لا تكاد تفهم منها شيئًا. لكنها طيبة القلب، تختلف عن أخواتها في الطباع.

ـ مستحيل! أنت تمزح.

ـ لا أمزح، هكذا جاءت إلى الدنيا. هل يثير ذلك سخطك؟

ـ أبدًا..

ـ نغمة صوتك أوحت لي بذلك.

ـ لا يا أمينو.. جمالها يعوّض عن لسانها.

أخرجت علبة بيرة من الكيس، وشرعت باحتسائها، ثم سألته:

ـ منذ متى تعمل في حراسة الملك؟

ـ منذ سبع سنين.

ـ يبدو أنه يثق بك كثيرًا.

ـ كيف لا يثق بي وهو خالي؟

ـ الملك آشور خالك؟

ـ نعم، أمي أخته.

ـ عجبًا!

ـ لماذا؟

ـ الملك خالك وأنت جندي؟

ـ لست جنديًّا عاديًّا، أنا رئيس الحرس الملكي.

ـ هل أنت متزوج؟

ـ لا، أعزب.

ـ لِمَ لا يزوجك خالك من أميديا أو إيشارا؟

ـ الزواج ليس سلق بيض، أنا أحب فتاةً من عامة الناس وسأقترن بها.

ـ حكمة.

ـ تعلمتها من أبي.

خيّم الصمت علينا ثانيةً، فخطر لي أن أسأله:

ـ هل تشرب الجعّة؟ أستطيع أن أسقيك علبةً.

ـ لا أتعاطاها، إنها تسبب الدوار أول الأمر ثم تصيب الرأس بالصدع. نحن الذين نخدم في بلاط الملك نسميها حساء الشعير، وفي رأيي، وأرجو ألاّ تزعل، البُلهاء فقط عندنا في كلحو يحتسونها ويسرفون فيها حد الثمالة والعربدة، أما نحن فنحتسي شراب الكرمة.

ـ أعتقد أن مَن تسميهم بُلهاء يتعاطون الجعّة لأن ثمنها زهيد.

ـ لا، إنها تُعطى لهم مجانًا، المشرفون على الإعاشة يخصّصون لكل واحد حصةً يوميةً منها بحسب منزلته الاجتماعية.

ـ وأنا أيضًا أعطيك مجانًا.

ـ هاتِ واحدةً لأعبّها وليعنّي الإله آشور على تحمّلها.

ـ خذ، واعطني رأيك فيها. أريد أن أعرف أيهما ألذ مذاقًا جعّتنا أم جعّتكم؟

احتسى جرعةً من العلبة، وقال:

ـ فيها طعم شعير أيضًا.

ـ طبعًا، لكنها أنقى من جعّتكم لأنها تُصنع بأجهزة متطورة. أليست لذيذةً؟

ـ بلى، إنها ألذّ من جعتنا.

ـ توجد أنواع أخرى منها ذات ألوان مختلفة، وتُقام لها مهرجانات واحتفالات في كثير من دول العالم.

ـ أنتم مرفّهون، أما نحن فقد قضينا أعمارنا في حروب وغزوات.

ـ أنت واهم، اصغِ إليّ، نحن أسوأ منكم بكثير، أكلت أعمارنا حروب وغزوات، وعشنا انكسارات وهزائم، ولا يزال الوضع على حاله.

ـ هل شاركت في أحد هذه الحروب؟

ـ لم أشارك، لكني أتنفس الحرب كل حين، رئتي ممتلئة بسمومها. ماذا عنك أنت؟

ـ أنا رافقت الملك في العديد من حملاته العسكرية.

ـ هل صحيح أنه مجرم حرب، نهب البلدان التي دخلها في تلك الحملات، واتّبع أسلوب القسوة والتدمير والبطش والقتل الجماعي والتمثيل بالأسرى وبجثث القتلى؟

ـ هذا افتراء، كذب، صحيح أنه كان شديدًا يُعاقب الذين يتمردون على حُكمه، ويهزم جيوشهم وأعوانهم لكنه لم يغلب عامة الناس على أمرهم، ولم يرغمهم على ترك آلهتهم وعبادة آلهتنا، ولم يستولِ على ممتلكاتهم، بل كان يرفق بهم، ويأمر جنده بعدم الاقتراب من نسائهم أو إتلاف محاصيلهم الزراعية أو قلع أشجارهم، لذا كان أبناؤهم يتطوّعون في جيشنا عرفانًا بجميل الملك في نزع الظلم والاسترقاق عن رقابهم.

ـ معنى ذلك أن المؤرخين تحاملوا عليه وكرّسوا صورةً شوهاء له.

17

راجعت في اليوم التالي ما كتبت، فأدركت أنّه يبعث على الخزي، فيه تزوير صادم للحقيقة، وكأني كتبته وأنا في حالة سكر، وأنّ مَن تكلّم عن الملك آشور، ونزّهه عما ألصقه المؤرخون به في رواياتهم هو أنا وليس أمينو، وبدا لي أنني رسمت صورةً ذهبيةً له، وجعلته أمثولةً ورمزًا إنسانيًا تعبيرًا عن رغبة في داخلي، ورحت أسترجع ما قاله عنه عمران «تناول مسالكه البشعة أيضًا، استبداده، وعنفه المفرط مع خصومه، وقسوته الشديدة مع أسرى الحروب ورميهم في النار...»، فشعرت بالاستحياء من نفسي، وخفّت حماستي للرواية، بالأحرى بدأت تتفتت إلى نتف، لكني ارتأيت أن أسمع رأي عمران بما كتبته أولًا.

أرسلته له بالماسنجر، فقرأه واقترح أن نلتقي في مطعم «القلعة». أخذت معي نصف قارورة فودكا خبأتها في حقيبة، كان صاحب المطعم يسمح لي، متواطئًا، بأن أشرب شريطة ألاّ يراني الزبائن. وصلت قبل عمران وكان الوقت بعد الغسق بقليل، اخترت مكانًا يشرف على البحر عُلّق على جداره قفص يحبس طائرًا رشيقًا مذهل الجمال من فصيلة الببغاء ذا ذيل مدبب وتدرجات لونية زاهية كأنها مقتطعة من قوس قزح. سألت النادل عن الطائر قال:

ـ اسمه كنيور، ثرثار وهزلي.

ـ يتكلّم؟

ـ ومليء بالطاقة والحيوية، وإذا شتمته شتمك بكلمات غاية في القبح.

زعق الطائر بكلمات لم أفهم مغزاها، لكنها بدت أقرب إلى الاحتجاج، فأشرت إلى النادل بألاّ يستفزه، ثم طلبت منه أن يضع شمعةً على الطاولة ويجهّز سمكةً مشويّةً تكفي إثنين.

جاء عمران متأخرًا ثلث ساعة عن الموعد، متعلّلًا بعطل طارئ في سيارته. قال، بعد أن شربنا كأسي عصير أضفت إليهما الفودكا خفيةً:

ـ قرأت ما كتبتَه. أسلوبك جذاب صراحةً، لكنه لن يشفع لك، ذهبتَ بعيدًا في تخيّلك وأنت ما زلت في بداية الرواية.

ـ أنت مَن اقترح عليّ أن أطلق العنان لمخيلتي وأسترسل على...

قاطعني:

ـ ما دار في خَلدي أنك ستجريها هذا المجرى.

ـ هل كان يتوجّب عليّ أن أعاكسها؟

ـ كان في مستطاعك أن تتحكم بها. وحبذا لو أنك جعلت البطل شخصًا آخر غيرك، ولا يحمل اسمك تلافيًا للنرجسية، وحتى لا يبدو الأمر وكأنك تكتب عن نفسك مثلما يكتب بعضهم سيرته.

ـ بالنسبة لإسمي لا أجد ضيرًا، ثمة كتّاب كثرٌ سموّا أبطال رواياتهم على أسمائهم.

تمهّل عمران ليأخذ رشفةً من كأسه ثم قال:

ـ ما دمت تسوّغ ذلك أسحب ملاحظتي وأذهب مباشرةً إلى ما كتبتَ. في الأدب، لست أدري كيف أعبّر.. أنا لست ناقدًا وأنت أدرى مني، أعتقد أن عنصر الإقناع مهم جدًا. يبدو لي أنك حشوت النص بمسائل غير مهمة.

ـ مثل ماذا؟

ـ الأمثلة كثيرة سأذكر لك بعضًا منها: تناولك الإرهابيين وحركة طالبان والحوار المطوَّل عنهم، إسرافك في الكلام عن ديانا وقريبتها والرجل الذي يقلهما بسيارته، تعطّل حركة السير ولقاؤك الفتى النازح بائع الصحف والحديث عن بلدته حمام العليل، رسالة هيلين المفاجئة، أما الطامة الكبرى فهي إخفاء الحارس أمينو فظائع خاله الملك آشور وتصويره على غير حقيقته كأنه يخرّف.

طال عمران سيجارةً من علبة دخاني، وسحب نفسًا منها، وأضاف:

ـ هذا طبعًا غيض من فيض، وثمة أمثلة أخرى في الرواية لا تحضرني الآن.

بدت مؤاخذاته أشبه بصفعة، فأشعلت بدوري سيجارةً ونفثت دخانها وقلت:

ـ أعلم أنني تسرّعت.

ـ تستطيع أن تعدّل فيها وتنجزها على مهل.

ـ لا أدري، خفّت رغبتي في مواصلة كتابتها.

18

ظلّ كلام عمران يرن في رأسي ذلك اليوم مثل جرس إنذار. فكّرت فيه طويلًا فوجدته صائبًا مئة في المئة. ستكون الرواية فاشلةً حتمًا إن لم أرمّم ما كتبت. أجل ستكون فاشلةً، ولن يجازف أي ناشر في تحمّل كلفة طباعتها، وحتى لو وجدت واحدًا نزيهًا يفعل ذلك، أو في أقل تقدير ليس شرهًا يفرض عليّ شروطًا مهينةً، فلن أجدي منها تقريظًا ما، لا بل سأكون محظوظًا إذا نجوت من البهدلة، لذلك آثرت أن أهجرها مدةً لا أدري كم ستطول، ثم أراجعها وأعيد كتابتها بتأنٍّ، وفي غضون ذلك أفيئ إلى مشروع بحثي لرسالة الماجستير عن الثقافة الآشورية التي دمّر المخربون والغزاة واللصوص معظمها. ستطرب سلفانا للموضوع أكيدًا، فلطالما حثتني على تناوله قائلةً «ستسهم من خلاله في إسكات الذين لا يرون في الإمبراطورية الآشورية سوى مظهرها العنيف، حروبها وغزواتها، ويتناسون أن سور الصين بأبهته وعظمته فكرة آشورية خالصة أخذها الصينيون عن سور نينوى المذهل»، وسيُسرّ عمران بالموضوع أيضًا. وفي الوقت ذاته سأحجّ بيت يونس لعلي أتعرّف إلى مارينا وأمها، وأقتنص فرصة جسّ نبض السيدة، مع أني شبه متأكد من أنها سترحّب برغبتي في طلب يد ابنتها، فأنا أقلها سأخفف عنها شيئًا من العبء، فلا تكون

مسؤولةً سوى عن رعاية أبنها. ولا بدّ لي بعدئذ أن أقنع أمي بأن تخطبها لي. لن تمانع من دون شك ما دامت البنت آشوريةً، وجمالها نادر المثال.

19

التقيت يونس في ما بعد مرتين، في المرة الأولى قصدت بيته بحجة تهنئته على صدور قرار بمنحه راتب تقاعدي من الجيش كان ينتظره منذ سنوات، لكني لم أحظَ بلقاء مارينا وأمها لأنهما كانتا خارج البيت للتسوق رفقة زوجته. أخبرني بذلك حين أعدّ الشاي وقدّمه لي بنفسه. وأصاب حدسي يومها بأنه يخطط للزواج من أم مارينا، ففي لحظة مكاشفة زعم أنه يرغب في إنجاب ولد آخر لكن زوجته مصابة بمرض لا يسمح لها بالإنجاب، وليس أمامه حل سوى الاقتران بامرأة أخرى، وألمح إلى أنها أرملة وفي متناول اليد.

حفزّني تلميحه إلى لقاء أم مارينا بأي طريقة، ولم أجد أفضل من دعوته إلى مطعم «القلعة»، مصطحبًا المرأة وأُسرتها. نجحت خطتي بسهولة، فكان لقائي الثاني به. استقبل الدعوة من دون تردد، لا بل اغتبط بها، فأدركت أنه وجدها فرصةً ذهبيةً ليتحدث إلى المرأة بحرية، وقُيّض لي أن ألتقيها أول مرة، وأعرف أن اسمها جانيت. سألتني عن عملي، وأعطتني نبذةً عن نفسها: «كنت موظفةً في مركز للتأهيل الاجتماعي بالموصل، من أُسرة هاجر معظم أفرادها إلى الخارج، ومن تبقّى منها نزح إلى المخيمات في الشمال». قدّرت أنها في منتصف الثلاثينات، ذات محيا هادئ، جسدها صلب، تفيض جمالًا ورقةً، رغم مأساة فقدان زوجها، الذي ما انفكت

ترتدي السواد حدادًا عليه، وثمة شيء مشترك بينها وبين ابنتها: لون عينيها وسعتهما وصغر فمها. كما أتيح لي أن أحادث مارينا، قالت إن عمرها 16 عامًا، وبعد شهر ستحتفل بعيد ميلاها السابع عشر، وتواصل دراستها في الثانوية، وتهوى الموسيقى وقراءة الروايات والقصص العاطفية، وحكت لي عن آخر رواية قرأَتها، «قصة حب مجوسية» التي كنت قد قرأتها قبل بضع سنوات، إلاّ أنني تظاهرت بعدم معرفتي بها لئلا أطفئ رغبتها في تلخيص أحداثها. وقد أدهشني تعاطفها مع بطل الرواية، وتحديه لكاهن الكنيسة، وبحثه عن معشوقته ليليان في حَواري المدينة الغامضة الحزينة.

لاحظت علامات السرور في وجه السيدة جانيت وهي ترمقنا مبتسمةً بوداعة، لكنّ ملامحها تغيّرت فجأةً عندما ذهب يونس إلى المرحاض، اكفهرّ وجهها، وبدت تائهةً كأنها في قلب غابة. سألتها:

ـ ما بكِ؟

أشارت إلى حيث مضى يونس وقالت:

ـ أنا منزعجة كثيرًا منه، وما كنت لأرافقه إلى هذه الدعوة لولا أنه أخبرني بأنك آثوري...

ـ آشوري.. آشوري.

ـ لم أعتد على ذلك بعد، المهم أردت أن ألتقيك...

تناهى إلينا نعيق بومة من شجرة في الباحة الخارجية للمطعم، فأشارت بإصبعها إلى جهة الصوت وكأنها تستشهد بالشؤم الذي يوحي إليه.

ـ بماذا يضايقك؟

ـ يكذب في ادعائه أن زوجته لم تعد قادرةً على الإنجاب، ويبتزني كأنني رهينة عنده بإلحاحه على الزواج مني.

ـ سبق أن ألمح إلى أنه يريد الزواج من أرملة في متناول اليد فأدركت أنه يقصدك.

ـ يا لحقارته! أنا في متناول اليد؟

ـ كيف صبرتِ عليه كل هذه المدة؟

تنهدت وقالت:

ـ لم يكن هكذا في البداية، لكنه تغير منذ بضعة أشهر، لا أدري أي شيطان لعب برأسه.

ـ نذالة.

ـ أنا الآن قلقة رغم رفضي المطلق الزواج منه، وبات بقائي في بيته خطرًا يؤرقني، لكني كسيرة الجناح يتآكلني الخوف.

أرسلت نظرة سريعةً إلى جهة المرحاض، وواصلت:

ـ أنا في أمس الحاجة إلى مساعدتك لتنقذني من المحنة، لا أعرف أحدًا في المدينة يمكن أن أستغيث به.

ـ أنا مستعد لفعل أي شي، ما السبيل الذي يتعين عليّ أن أسلكه؟

قالت بصوت خافت محترس:

ـ جِد لنا مكانًا آمنًا يأوينا ولك دين في رقبتي.

أخجلني كلامها:

ـ أي دين حاشا لله؟

أشارت إلى مارينا:

ـ أظنك مغرم بها وسأزوجك إياها.

ـ طبعًا طبعًا، يشرفني، لكن ليس كمقايضة.

ـ أعني إن أحببتَ.

نظرتُ إلى مارينا:

ـ وإن أحبّتْ هي أيضًا.

ابتسمت الصبية ابتسامةً رقيقةٌ خجلى فقلت لأمها بحميّة:

ـ تكرمين، سأفعل.

أخذت رقم هاتفها ووعدتها بأن أنقذها في أقرب وقت. فكّرت على الفور في أسين، فهي تعيش وحدها مع ابنتها، ولا أخالها تردّ طلبي، خاصةً إذا أسررتها برغبتي في خطوبة مارينا.

هاتفت أسين فور عودتي إلى البيت وشرحت لها أمر جانيت، فإذا بها كما توقعت، لم تبدِ أي اعتراض، بل فتحت قلبها الدافئ مرحّبةً بها في بيتها، وقالت إن وجودها إلى جانبها سيسعدها، ويقوّي من عزيمتها في رفض مخطط أهلها المشؤوم، فهي ستتكفّل برعاية ابنتها أثناء غيابها في المدرسة، ولن تضطر إلى أن تعهَد بها لأمي.

أبلغت جانيت بالحل الذي وجدته لها، فطارت من الفرح، وشكرتني على التزامي بالوعد، وخلال يومين جمعت حاجاتها، لم يكن في حوزتها سوى النزر اليسير منها: ملابس وأحذية وكتب مارينا ودفاترها دستها في حقيبتين، وانتقلت إلى بيت أسين، مستغلةً غياب يونس عن البيت، وكان

لزوجته دور عظيم، تستحق الثناء عليه، في تسهيل المهمة. أما يونس فقد طار عقله حين علم بالأمر، وحاول أن يعرف الجهة التي قصدتها جانيت، لكنّ زوجته نفت معرفتها بالمكان. ذلك ما استخلصته من جانيت نقلًا عن الزوجة التي اتصلَتْ بها مساء اليوم الذي رحلت فيه وأخطرتها بما حدث، ونبّهتها إلى أن تغلق هاتفها ولا تفتحه إلا بعد تغيير شريحته.

لم أخفِ الأمر عن أمي، فقد كانت ستعرف به في نهاية المطاف من لسان أسين حين تخبرها بأنها ما عادت في حاجة إلى ترك ابنتها عندها، وستكشف لها عن القصة كما جرت. أثنت أمي على ما فعلتُ، لكنها عاتبتني لأني لم آخذ رأيها قبل أن أقدم عليه. ومن باب الفضول زارت أسين وتعرفت إلى جانيت ومارينا، وعندما عادت أشادت بهما، وكانت لديها رغبة في أن تجعل الأم ترافقها إلى الكنيسة «ليحفظها القديس بطرس شفيع الأرامل»، وميل خفي إلى أن تكون البنت كنّتها «مهذبة رقيقة، والحق يقال إنها غادة، حلوة كالشهد، أحلى من تلك السريانية الحمقاء التي ضيّعت نفسها في أميركا».

من الحَسَن أن السنة الدراسية لم تكن قد بدأت، وإلاّ لما تردد يونس عن الذهاب إلى موقع مدرسة مارينا ليتصيدها أثناء خروجها، ويتقصى عنوان المكان الذي لجأوا إليه. ومن الحَسَن أيضًا أن جانيت كانت تدّخر بعض المجوهرات، التي يكفي ثمنها تأمين نفقات أُسرتها الصغيرة إلى أن تحصل على رواتبها المتوقفة من الحكومة منذ سنتين.

اقترحتُ على أمي أن تدعو أُسرتَي جانيت وأسين إلى مأدبة عشاء في بيتنا. كنت أتوق إلى أن تتذوق مارينا طبخ حماتها، فهي ماهرة جدًا في

إعداد الكبة والدولمة [1]، ولا تباريها امرأة أخرى في هذا المجال. لبّت الاقتراح عن طيب خاطر، وساعدتها جانيت لتبرهن لها أنها لا تقل براعةً عنها، خاصةً في الدولمة على الطريقة الموصلية.

كاد يونس يفسد أُنس ليلتنا تلك باتصاله بي، وكنت أتوقع ذلك. كان منزعجًا إلى أبعد الحدود. سألني عما إذا كانت لدي أي معلومات عن جانيت وكأنها زوجته أو عشيقته، لكني تظاهرت بأني لا أعرف أي شيء، وراح يكشف لي عما أقدمت عليه، واصفًا إياها بأنها ناكرة جميل، أهانته بهروبها، ورجا مني أن أبلغه بأي معلومة تقع في يدي عن المكان الذي قصدته. وختم كلامه بأن لديه طرقًا خاصةً للتحقّق من أمرها.

لم أُخطر جانيت بمكالمته، فأمضينا الليلة بسعادة، وأطلعت خلالها مارينا على مكتبتي. تناولت منها كتابين أحدهما مجموعة قصص قصيرة مترجمة لتشيخوف، والثاني رواية «عصر الحب» لنجيب محفوظ.

صباح اليوم التالي أردت أن أغيّر رقم هاتفي، لكني أدركت أن يونس سيشكّ في الأمر، فاكتفيت بشراء شريحة جديدة لهاتف جانيت باسمي، وأوصيتها بأن تتوخّى الحذر، لا أحد يخرج من البيت مدة شهر، لا هي ولا مارينا ولا فادي. وحمدت الله على أني لم أعطِ عنوان بيتي ليونس، ولم أخبره بتفرغي للدراسة في الجامعة، بل قلت له حين سألني في لقائي الثاني به عن طبيعة عملي إني مدرس، مدرس فقط من دون أي تفاصيل أخرى. وهذا ما طمأنني.

(1)الدولمة: طبخة تتكون من ورق العنب أو السلق والباذنجان والكوسا، وغير ذلك، المحشوة بالأرز واللحم المفروم.

20

عرضت على عمران، عقب بضعة أيام، أن نلتقي في مكان آخر غير مطعم «القلعة». اقترح أن يكون اللقاء في مقهى «النافورة» على الشاطئ عصر اليوم نفسه، واشترط ألاّ يطول أكثر من ساعة لأنه على موعد مسبَق مع الأستاذ المشرف على أطروحته قبيل المغيب لترتيب مسألة ما.

وصلنا إلى المقهى في وقت واحد تقريبًا، الرابعة عصرًا، واخترنا الجلوس على مقعدين من الخيزران في ظل شجرة كاتالبا في باحتها الخارجية. كانت المقهى نظيفةً وهادئةً، تتوسطها نافورة محاطة بمصابيح زرق، وتزيّن جنباتها جرار فخارية كبيرة زُرعت فيها ورود مختلفة: أقحوان وخزامى وزعفران، ومن الصالة الداخلية كانت تترامى إلينا أصداء موسيقى ناعمة عبر نوافذها المشرعة.

باشرت الحديث مع عمران، بعد أن احتسينا استكاني شاي. أنبأته بقرار تأجيل الرواية أولًا وبِنيّتي خطبة مارينا ثانيًا. لم يعلّق على النبأ الأول، وكأنه كان يتوقعه، في حين استقبل النبأ الثاني فرِحًا:

ـ شيء جميل أن أسمع منك ذلك. هل كنت على تواصل مع...؟

ـ يونس. نعم زرته مرةً، ودعوته وأُسرة مارينا إلى مطعم «القلعة».

ـ كيف وجدت الأم؟

سألني، فقلت:

ـ سيدة رائعة، نقية وطيبة ومتواضعة. وسُرّت حين حادثت مارينا.

ـ حتمًا.. هل تجد عريسًا لابنتها أفضل منك؟

ـ ليس هذا فحسب بل هرّبتها قبل يومين، هي ومارينا وابنها، إلى بيت جارتنا أسين من غير علم يونس.

ـ لماذا؟

ـ يريد أن يقسرها على الزواج منه.

ـ يا إلهي! كيف تسوّل له نفسه وهي أرملة صديقه؟ لا بدّ أنه استغّل ضعفها فحسِبَ أن إيواءها في بيته يمنحه الحق في امتلاكها.

ـ طمع بها الحقير. ولولا تلك الدعوة التي جعلتني أنفرد بها بضع دقائق لما علمت بالأمر.

ـ ليكن الله في عونها.

ـ لقد أنقذتُها.

ـ أحسنت، إنه فعل بطولي.

ـ ربما تكون مأساتها أخف من مأساة غيرها من النازحات اللواتي فقدن أزواجهن.

ـ اللعنة على الذين تسبّبوا في هذه الكارثة.

ـ بل خرا عليهم كما تقول أمي.

أوصيت النادل أن يسقينا فنجانين قهوة، ثم أعلمت عمران بموضوع

رسالة الماجستير الذي اخترته، فشجّعني على البحث فيه، بل أكثر من ذلك قال «إنه يتّسق تمامًا وعصبيتك الجديدة».

لم تستفزني عبارته هذه، فقد سبق أن سمعت منه عبارات مشابهةً، لكني لم أفسح له المجال لقول المزيد، قلت له محاججًا:

ـ لستُ وحدي مَن يتعصّب إلى انتمائه الإثني هذه الأيام وإنما ملايين الناس في البلد كما تعرف، وثمة مَن يعتصمون بولاءات ضيقة تتقلص لدى بعضهم لتأخذ مظهرًا فرعيًا.

ألقى نظرةً خاطفةً على ساعته ثم قال:

ـ لا أخالفك، هذا هو واقع الحال.

شعرت بشيء من الزهو فابتسمت له، ونهضت واتجهت إلى سياج المقهى المطل على البحر. اتكأت عليه ورحت أتطلّع إلى القوارب والزوارق التي تشق عباب الماء. كان أحد القوارب، وهو يشبه المركب الآشوري، لكنه أصغر حجمًا ومزود بمحرك، يقترب إلى الأعمدة الخرسانية التي تدعم باحة المقهى حتى خلت أنه سيصطدم بها، إلاّ أنه سرعان ما أبطأ وغيّر اتجاهه، ثم استدار ورجع على الأثر، مخلّفًا وراءه حلقات من الزبد. كان على متنه بضعة شبّان يرقصون على أنغام أغانٍ محليّة، فهطلت على رأسي فكرة مثل زخة مطر مباغتة. ناديت عمران من فوري:

ـ تعال أنظر.

جاء مستغربًا:

ـ خيرًا؟

أشرت إلى البحر:

ـ ألا يبعث في النفس بهجةً؟

ـ طبعًا. لكن ما الجديد في الأمر؟

ـ خامرتني فكرة، لكني لن أطلعك عليها الآن، سأفاجئك بها في ما بعد.

ـ كما تشاء.

21

في أواخر تشرين الثاني، قرع الشتاء أبواب أرابخا مبكّرًا، وجرت مناقشة أطروحة عمران نهار يوم ضاجٍّ بأحداث رهيبة، تفجيرات واغتيالات دارت حولها الألسن، وانتهت المناقشة بقرار منحه درجة امتياز.

خشينا يومها أن يُعلن عن حظر للتجوال في المدينة يحول دون إقامة احتفال يليق بعمران، لكن من حسن الحظ لم يحدث ذلك.

كان أوان الفكرة، التي أجّلت إطلاع عمران عليها، قد حان وهي إقامة حفلة له على ظهر مركب يجري في البحر، يشارك فيها جمع من طلّاب قسم الآثار بالكلية، بينهم أربعة يجيدون الغناء والعزف على آلات موسيقية بإتقان.

كنت قد هيأت متطلبات الحفلة قبل يومين من دون علم عمران، وضعت قائمةً بالمشاركين، وأستأجرت مركبًا مزوّداً بمحرك، واشتريت أوراق زينة ملونة على شكل ورود وقلوب، واتفقت مع مطعم «القلعة» لإعداد وجبات طعام سريعة ومشروبات وعصائر وحلوى وفواكه.

بحتُ بفكرتي لعمران وأنا أقدّم له باقة زهور وأعانقه مهنّئًا، فاغتبط بها كثيرًا، واقترح عليّ أن أدعو أُسرة مارينا وجارتي أسين، قائلًا إنها فرصة لأن يرى الصبية، ففاجأته بأن الأُسرة موجودة في القاعة، عدا أسين، ثم

عرّفته إليها: السيدة جانيت، مارينا ابنتها، وفادي ابنها. وكان أخوه وزوجته حاضرَين فدعوتهما للانضمام إلينا.

حين غادرنا الكلية عاتبني عمران لأني لم أحضر أمي معي لتبتهج بتخرجه، فهي تكنّ له ولزوجته مودةً كبيرةً. ضحكت وقلت له:

ـ ماذا دهاك، هل نسيت أن اليوم أحّد موعد ذهابها إلى الكنيسة؟

ضرب جبينه بباطن كفه، وصفّر قائلًا:

ـ ياه! كيف لم أفطن إلى ذلك؟

ـ دوّختك مناقشات الأساتذة.

بعد ساعة كان الجميع يحتفلون على ظهر المركب، تحت سماء تزيّنها غيوم شفيفة تصطف على شكل أشرطة متوازية كأنها بلورات جليدية؛ مندمجين مع أغانٍ تصدح بكل لغات المدينة، يرافقها عزف على العود والساز والمزمار والطبلة، وما هي إلاّ دقائق حتى سرى سحرها في أجسادهم كالخدر، فأخذ بعضهم يرقص بانتشاء وحيوية وسط حلقة من المصفقين، بينما راح آخرون يرددون مع المغنين أغانيهم وهم يتمايلون بأجسادهم على مقاعدهم أو واقفين على أقدامهم، وثمة مَن كانت تربطهم علاقة غرامية ببعض الطالبات فشرعوا في مغازلتهن.

أحد هؤلاء صديقي دلير، شيوعي مأخوذ بأفكار تروتسكي حول الثورة الدائمة، ومتمرد وصعلوك ومزّاح مدهش، يحفظ عشرات النكات، ويلقيها من دون توقف، مثل رشاش يقذف الرصاص متتاليًا؛ جاعلًا من سامعيه يستغرقون في ضحك متواصل. كان يبدو في غاية الانتعاش، أظنه شرب

كأسًا، فهو غالبًا ما لا يفوّت فرصةً مثل هذه دون أن يكون قد خبّأ ربع قارورة في حقيبته. وكان يضع ذراعه على كتف طالبة جميلة، ينسدل شعرها بحرية حتى خصرها، ويلمس غمّازتها بشاهد يده الأخرى بين لحظة وأخرى، ويهمس في أذنها، في حين كانت البنت تزوي ما بين حاجبيها، وتبدو على وجهها أمارات الخجل.

وثمة طالب آخر يُدعى جليل، قصير القامة، ذو فم ممطوط كأنه فم ضفدع، يعتمر قبعةً مائلةً إلى ما فوق حاجبيه، وجهه خالٍ من أي تعبير، عدا عينيه النهمتين الشبيهتين بعيني ماعز، يُشاع عنه أنه ليس سليم الطوية، أفّاك كثير المخاتلة والتلوّن، على النقيض من اسمه، ترافقه طالبة أقصر منه، ذات وجه مدوّر، وشعر قصير جعد كأنه كيس ورق عتيق، وصدر كبير مندفع إلى الأمام تحت بلوزتها إلى درجة يكاد يشبه حدبةً، تزيّن عنقها قلادة زائفة، وتستنشق وردة جوري في يدها، وترتسم على محيّاها ابتسامة الرضا تعبيرًا عن سرورها بعبارات التشبب التي يناجيها بها، وكأنها جاءت لتحقيق هذا الهدف دون سواه، حيث يبدو من إيماءاتها وحركاتها برمّتها أنها ظمأى للغزل، وسهلة الانزلاق في المشاعر.

لم تكن تربطني بجليل علاقة، ولم يكن اسمه مدوّنًا في قائمة المشاركين في الحفلة، لكنه حشر نفسه حشرًا، واصطحب معه البنت المسالمة التي تشبه بطةً داجنةً، وكأني به خطط لإغوائها بعد انتهاء الحفلة، فراح يسمعها كلامًا معسولًا.

أما أنا فقد كان جلّ اهتمامي منصبًّا على مارينا وأمها. كانت الصبية ترفل في حلة السعادة، لا تفارق الابتسامة وجهها، متألقةً بفستانها الأزرق المخضرّ الذي اشتريته لها، وقد رشت على رقبتها عطرًا أخّاذًا من زجاجة

أهديتها لها ونحن ندلف إلى المركب، وأخذت تتمايل وإيقاع الموسيقى مثل الآخرين، لكن بخفر، فشعرت كأني على عتبة الفردوس، ووددت أن أحتضنها أمام الجميع، وأطبع قبلةً على شفتيها، ثم أرفعها بكلتا يديّ وأديم النظر إليها حتى الأبد.

لاحظت احدى الطالبات، اسمها ليندا، لا تكفّ عن اختلاس النظر إليّ بعينين فيهما غواية مستميتة، حتى وهي ترقص، كلما دنوت من مارينا وأمها، فاستغربت من فضولها. كانت ترتدي تنورةً حمراء تنتهي إلى ركبتيها، وكنزة جينز زرقاء قصيرة لا تغطي عجيزتها المسطّحة، ولم يكن لها محيط خصر كأنها رجل. قصدتها حين أنهت رقصتها واستفسرت منها عما إذا كانت تضمر في نفسها شيئًا، ارتبكت في البداية ثم قالت:

ـ لفتت انتباهي الصبية، هل هي أختك؟

ـ لا، إنها خطيبتي.

انتابتها الدهشة:

ـ خطيبتك؟ يا يسوع! إنها، عذرًا لتدخلي، تبدو مراهقةً.

ـ هذا أفضل، عمرها 16 عامًا.

ردّت بشيء من الامتعاض:

ـ لكنها قاصر، دمية.

ـ هذه الدمية ينبوع سعادة لا ينضب.

ـ هل نلتها؟

ـ احفظي لسانك.

ـ ظننتك...

أردت أن أستثيرها فقاطعتها:

ـ لا أميل إلى اللواتي في سنّك.

رمقتني باستهجان:

ـ أنا أصغر منك بسنتين.

ـ كيف عرفتِ سنّي؟

ـ عرفته من وداد.

ـ آه، وداد تعرف طبعًا لأنها زميلتي في الماجستير.

ـ أنا أيضًا سأقدّم للماجستير.

ـ سأدعوك إذًا إلى حفلة عرسي بعد تخرجي، هل ستحضرين؟

تصنّعت ابتسامةً، ووضعت ساقًا على ساق وقالت:

ـ لا أدري، سأفكّر.

لم تدخل ليندا بعدئذ حلقة الرقص قط، ظلت منكفئةً على نفسها. لا أعرف شيئًا عنها سوى أنها سريانية في المرحلة الثالثة بقسم الآثار، سبق لي أن لمحتها مرتين أو ثلاثًا في مكتبة الكلية، وقد دعتها وداد لحضور الحفلة.

كان عمران يجلس لصق زوجته رباب مسترخيًا على مقعده مثل ملك متوّج، لكنه بدا متعبًا. تقدّمت إليهما، وسألت:

ـ لم أسمع رأيكما في مارينا، أليست جميلةً؟

ردّت رباب بحبور ممتزج بدهشة:

ـ جميلة فقط! ملاك ما شاء الله، تأخذ العقل.

وتثاءب عمران وقال:

ـ فعلًا، إنها مزيج من الفتنة والبراءة خليقة بأن تتولّه بها وتهبها خلاصة نفسك.

ألقيت نظرةً خاطفةً على مارينا، وقلت لعمران:

ـ عندي فكرة.

ـ هاتِها.

ـ ما رأيك أن أعمل حفلة الزفاف على متن هذا المركب بعد نيليَ الشهادة، ويكون لون بدلتينا أنا ومارينا رصاصيًّا بلون البحر؟

أجاب مستغربًا:

ـ أهووو! لِمَ أنت عجول تقدّم العربة على الحصان؟ أخطب أولًا ثم فكّر في الزفاف.

قلت:

ـ الخطوبة مضمونة.

ـ ومراسم الزواج في الكنيسة؟

ـ نعملها أولًا ثم نكملها في المركب.

ـ هل استلهمت الفكرة الآن من الحفلة؟

ـ لا، راودتني منذ مدة، ألهمنيها االبحر.

ـ أنت تستلهم كل أوهامك منه.. ينقصك أن تكون مارينا خارجةً من أعماقه مثل حورية بحر.

ـ ليتها كذلك.

ـ يا لسطوته على رأسك كأنك توأمه. أنت تصلح أن تكون شاعرًا لا روائيًّا.

ـ في علاقتي به فقط.

ـ وبالصبايا الجميلات أيضًا.

ـ معنى ذلك أنني ربما أتحول إلى شاعر. لكن ماذا عنك أنت؟

ـ أنا؟ لا أصلح إلاّ لنبش الماضي.

ـ ليس هذا ما أعنيه، بل علاقتك بالبحر، تتحدث وكأنك لست مولعًا به!

ـ ليس مثل ولعك.

ـ ألم تقل لي ذات يوم أنك تآخيت مع الماء منذ الصغر؟

ـ بلى، غير أنه لا يوسوس في صدري مثلك، ولا أستبعد أن تلقى حتفك بين لججه يومًا ما فتزدردك إحدى آفّاته.

ـ أليس ذلك أفضل من أن يأكل الدود لحمي في جحر من الأرض؟

بعد انقضاء ساعتين من البهجة، التي أضفت عليها نسائم البحر بهاءً،

لاحظت أنّ النعاس أطفأ عمران تمامًا. أشارت لي زوجته بيدها إشارةً فهمت منها أنه لا بدّ أن يرتاح إثر يوم حافل بالتعب. هززت رأسي موافقًا وقصدت قائد المركب وأبلغته بأننا اكتفينا ونريد العودة. كان الرجل متعبًا أيضًا، فغيّر اتجاه المركب، ومضى به صوب المرفأ. عندما صرنا على بعد نحو مائتي متر عنه انتفضت جانيت كالنابض، وأفلتت من فمها عبارةً، بنبرة يغلب عليها الفزع:

ـ وَيلي يا نينوس، أنظر هناك..

ـ ماذا؟

ـ يونس على الرصيف!

أرسلت بصري إلى الناحية التي أشارت إليها فرأيت رجلًا يذرع الرصيف بمشية شبه عسكرية، ويتلفت إلى البحر تارةً وإلى القلعة تارةً أخرى. افترضت أنه يونس بالفعل، أوصافه تنطبق عليه تمامًا: القامة الطويلة والشعر الخفيف الذي تهدّده بداية صلع، لكن من حسن الحظ كانت المسافة التي تفصلنا عنه بعيدةً تحول دون تمكّنه من تمييز الأشخاص على متن المركب، الذين ينوف عددهم على الثلاثين، فأسرعت إلى قائد المركب وطلبت منه أن يغيّر اتجاهه ويعود إلى الوراء، ووعدته بأن أزيد أجرته. استجاب الرجل من غير أن يسألني عن السبب، فصفّق بعض المحتفلين ظنًا منهم أنني أردت إطالة أمد الحفلة، أما جانيت ومارينا وفادي فتركوا مقاعدهم وجلسوا على أرض المركب هلعين، ملتمسين أخفاء أنفسهم، واستسلم عمران إلى إغفاءة على كتف زوجته، لا يعرف شيئًا عن الأمر.

«كيف جاء هذا السافل إلى المرفأ؟ تساءلت «أهي محض مصادفة أم أنه علِم بوجودنا؟». كان بودي لو أني أحمل إذ ذاك منظاري لأتأكد منه وأقطع الشك باليقين، لكن لم يخطر في بالي أننا سنواجه مثل هذا الموقف. قلت لنفسي «لِمَ لا أسأل قائد المركب فلربما لديه واحد؟»، قال «إي، عندي منظار ألماني يقرّب الأشياء أضعاف المرات»، ثم أمر مساعده بأن يفتح خزانةً خلفه ويستخرجه لي.

التقطته منه ووضعته على عينيّ وشرعت أنظر. حرّكت قرص التقريب إلى أقصى مداه فإذا بي أفاجأ بأن الشخص الذي عنته جانيت ليس يونس، بل شخص آخر يشبهه، خاصةً عندما توقف عن المشي وأدار جسمه كاملًا صوب البحر. داخلني شعور بالارتياح، وشكرت قائد المركب ورجوته أن يعود إلى المرفأ. لكنه سألني هذه المرة عما إذا كنت قد شككت في وجود مشكلة أو أمر مزعج بانتظاري، أجبت «تصورت أني رأيت شخصًا على رصيف المرفأ لا أرغب في رؤيته، لكن تبين أنه ليس الشخص ذاته.. أنا آسف». وبدا لي جوابي أنه الجواب الوحيد المعقول.

رجعت إلى جانيت ومارينا متهلّل الوجه وأخبرتهما بما رأيت، فتنهدتا وانزاحت عنهما تعابير القلق في الحال، ثم نهضتا وجلستا على مقعديهما، في حين انتصب فادي واقفًا، ومسّ شعره بأصابعه، وراح يسدّد نظره إلى جهة القلعة، حيث بدت تحت ظلال الغيوم كأنها لوحة تكعيبية مخططة بالأبيض والأسود، فأعادني منظره إلى صباي، وأخذني الحنين إلى ذلك اليوم الذي اعتليتُ فيه ظهر المركب السياحي، أول مرة، صحبة أبي.

دنوت من فادي وطبطبت على كتفه، وأشرت إلى القلعة:

ـ كم هي جميلة حين تنظر إليها من البحر.

ـ إنها تذكّرني بقلعة باشطابيا في الموصل.

أردت أن أعلمه بأن الإرهابيين دمّروا تلك القلعة قبل سنة، إلاّ أني أعرضت عن ذلك لئلا أهشّم صورتها في ذاكرته وأسبب له حزنًا، وقلت:

ـ هذه أقدم بكثير من قلعة باشطابيا، وكان الناس يسكنونها إلى عهد قريب.

ـ أودّ أن أطل منها على منظر البحر.

ـ سآخذك إليها في عيد ميلادك.

شعّ وجه فادي فرحًا وهمّ باحتضاني، متلفّظًا بعبارات الشكر، لكنّ حدثًا مريعًا وقع في تلك اللحظة لم يشهد البحر مثيلًا له مذ بدأت علاقتي به. لقد دوّى انفجار رهيب، صحبه انكسار في سكون الهواء واضطراب في الموج كأنّ عاصفةً تلاعبت بالبحر. التفتُّ إلى الجهة التي بلغنا منها صوت الانفجار فإذا بي أبصر يختًا تشتعل فيه النار، وقد تناثرت أشلاء منه على سطح الماء. كان ذلك اليخت قد مرّ من جنبنا قبل ثوانٍ مبطئًا في سيره، وخلفه زورق حماية على متنه مسلّحون، لكن لا أحد منا تمكّن من رؤية الأشخاص الذين يستقلون اليخت، فقد كان سطحه مغطى وزجاج نوافذه معتمة، ولم يكن لحظة انفجاره يبعد عن مركبنا أكثر من كيلومتر واحد.

أصيب جميع رفقائي في المركب بالذعر، وتعالى صراخهم وزعيقهم، وانبطح العديد منهم، خاصة النساء، على بطونهم هلعًا، ووضعوا أكفهم

على رؤوسهم. لم يخامرني الشك في أنّ اليخت كان مفخّخًا، لا بدّ أن أحدهم زرع فيه حزمة ديناميت، لذا هرعت من فوري إلى قائد المركب وأعجلته بتغيير وجهته توجّسًا من وجود يخوت أخرى مفخّخة راسية في المرفأ، يمكن تفجيرها عن بعد. بدّل الرجل دفة مركبه، ولكن بشيء من الاستياء هذه المرة، ومضى به إلى عرض البحر، معاكسًا موجاته الزاحفة صوب الشاطئ كأنها مخلوقات حية مفزوعة.

في تلك الأثناء هامت سحابة من ضباب، أشبه بدغل كثيف، سرعان ما تعاظمت، ولاحت لنا من داخلها زوارق ذات لون رمادي غامق أحاطت بالمركب فجأةً، وحين تميزناها كانت أربعةً على متنها مسلّحون ملثّمون، ذوو هيئات غريبة، وجّهوا بنادقهم إلينا، ونادى أحدهم بمكبّر صوت محمول آمراً قائد المركب أن يتجه إلى جزيرة صغيرة على مبعدة بضعة كيلومترات تُدعى «شوشة». كانت معلوماتي عن تلك الجزيرة أنها مستعمرة لثعالب وبنات آوى وطيور جارحة. ملأ الذعر قلوب الجميع مرةً أخرى، إلاّ أنهم كتموا أنفاسهم وتسمّروا في أماكنهم. أما قائد المركب فقد رضخ للأمر وسار إلى الجزيرة، بينما سحابة الضباب التي باتت دغلًا لا تزال تلمّ بنا.

بعد لحظات، ومن قلب تلك السحابة الهائلة، عاد حامل مكبّر الصوت لينادي، وقد بات شبحه أكبر مما بدا أول مرة:

ـ اسمعوا جميعًا، لا شأن لنا بكم، نريد واحدًا منكم فقط هو نينوس الآثوري.

شخصت أبصار مَن في المركب نحوي مشدوهةً، عدا مارينا وأمها، فقد

بدت نظرتهما مكتنزةً برذاذ البحر، يعتريها قلق موجع ولوعة على أشدّها. وفي السماء حلّق سرب من خطّاف البحر على ارتفاع قليل؛ مطلِقًا زقزقات صاخبةً قبل أن يحطّ على الشاطئ لكنس بقايا الصيد المُتخلّى عنها، أو يغطس في الماء من أجل التقاط الأسماك الصغيرة.

من جوف تلك البرهة الغامرة بضبابها ورعبها قفز إلى ذاكرتي حلم نجاة شميرام من خاطفيها، وتواريها رفقة البحر في الغمام، وقلت لنفسي «إنهم الخاطفون أنفسهم وقد حلّوا في أجساد مختلفة، لكن أنّى لي أن أتوارى عن عيونهم المتربّصة وأنا لست في حلم، لست أبدًا في حلم؟».